# لَيلَة التَّحرير

(روايـة)

*محمد العون*

# محمد العون: ليلة التحرير (رواية)

الحضارة للنشر

7 شارع أبو السعود – الدقى 12311 – القاهرة

**Al-Hadara Publishing**
**7 Abou El-Seoud Street**
**Dokki 12311, Cairo, Egypt**

**Tel.: (20-2) 37 61 94 39**
**Mobile: (20-12) 316 48 67**

**E-mail: ask@alhadara.com**
**E-mail: hadara@idsc.net.eg**

**www.alhadara.com**

الطبعة الأولى: ديسمبر 2011

رقم الإيداع بدار الكتب 2011/ 20307
I.S.B.N. 978-977-476-127-8

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

# تحية

إلى شباب مصر الشجعان الذين حققوا الحلم

وإلى

صديقى الشاب

الذى خاض معركة الثورة ببسالة

*يا معذب الجماهير يا ظالم اظلمها*
*ومن حياة الكفاف الضيقة احرمها*
*جموع تجدد شبابك وانت تعدمها*
*يا معذب الجماهير يا باغى*
*كومها فى السجن بالجملة*
*عمال فلاحين طلبة*
*مجاهدين مُجهدين عالبرش نيمها*
*وسطوتك شهوتك فى الخلق حكمها*
*راكن على جيوش بكرة نهزمها*
*اللى ما حيلتوش مداس يدوس رقبتك*
*واللى بنى صروحك هو اللى يهدمها*

*فؤاد حداد*

# 1

بعد العاشرة مساءً بدقائق، تصف سيارة مرسيدس حديثة الطراز بجانب الرصيف المقابل لجامع عمر مكرم، على غير العادة كانت هناك أماكن خالية، تقريباً كان الرصيف خالياً، بعد هذا اليوم الحافل لم يكن الأمر مدهشاً أو مثيراً للاستغراب، منذ زمن طويل لم يمر على الناس يوم كهذا. زحام كثيف لكنه ليس زحام الأيام الأخرى.. العادية، تجمعات من كتل بشرية تتوزع فى أرجاء الميدان الفسيح، فى حقيقة الأمر هو ليس ميداناً واحداً بل ميدانين يصل بينهما شارع واسع يتوسطه المتحف المصرى، تم منذ بضع سنوات اختراع الميدان الجديد وأطلقوا عليه اسم ميدان الشهيد، نصبوا قاعدة وضعوا عليها تمثالاً للقائد العسكرى الشهيد فى مفترق الطرق الذى يسبق الميدان الأصلى فى محاولة ساذجة لتنظيم المرور المختنق فى مدينة يتزايد عدد سكانها بجنون وبمعدلات غير مسبوقة أنتجت فى نهاية الأمر أعداداً هائلة من الشبان، أصبحوا يمثلون الكتلة الأكبر من التجمعات التى تغطى وجه الميدان الآن.

أربع فتيات مازلن فى المرحلة الجامعية يوحى مظهرهن بالثراء نزلن من السيارة المرسيدس وهن يحملن أكياس بلاستيك كبيرة الحجم عليها أسماء محلات ومطاعم شهيرة، توجهن بخطوات خجلة نحو الجموع التى تجلس فى الحديقة التى تتوسط الميدان، كانت وسائل الإعلام قد أذاعت أن حركة اعتصام بدأت فى الميدان وأنها ستستمر حتى الصباح، سارت الفتيات وسط حالة من الفرح والشعور بالانتصار تسود جميع الجالسين فى تجمعات صغيرة وكبيرة تضم شباناً وشابات ورجالاً ونساء أكبر سناً،

وقد حرص الجميع على رفع الأعلام واللافتات التى كتب عليها عبارات نارية تنادى بسقوط السيد الرئيس الديكتاتور وابنه المريض المتطلع للحكم، بينما تدوى من الجانب الآخر للميدان هتافات منغمة على دقات الطبول والصفارات من مشجعى أندية الكرة الذين انضموا للمرة الأولى فى حياتهم إلى المظاهرات السياسية، كانوا أشد الجميع حماسة كأنهم يريدون تعويض السنوات التى قضوها فى ممارسة التفاهة من مدرجات الأندية والملاعب بعيداً عن الهموم الحقيقية لوطنهم، بحكم تمرسهم على الهتافات المنظمة وقدرتهم على الاستمرار لساعات فإنهم ظلوا يواصلون بعد أن بحت أصوات الجميع من حولهم، ولم تلبث مقدرتهم على ابتكار الهتافات الساخنة أن تفجرت بشعارات جديدة من ينبوع وطنيتهم التى تشاغلوا عنها من قبل بأنديتهم، كان النظام السياسى للسيد الديكتاتور الرئيس ينفق بسخاء على كافة وسائل الإلهاء ومن ضمنها الأندية ومشجعوها ويخلق بينهم صراعات مفتعلة ليمتص طاقة الجماهير ويصرفها بعيداً عن شئون الحكم وسوء إدارته للبلاد وعن تردى الأحوال المعيشية لغالبية مواطنيه، لكن المشجعين فى نهاية الأمر كانوا جزءاً من الشعب يعانون كغيرهم وتنتمى غالبيتهم للطبقات الفقيرة التى تتحمل النصيب الأكبر من المعاناة والظروف الحياتية البالغة السوء، مما جعلهم يعلنون موافقتهم على الاشتراك فى المظاهرات دون تحفظات بمجرد أن اتصلت بهم مجموعات الشبان السياسية ضمن تخطيطهم لحشد أكبر عدد ممكن فى المظاهرة التى أرادوا لها أن تكون الأكبر ضد النظام الديكتاتورى الحاكم.

الميدالية الذهبية تتدلى من يد الفتاة صاحبة المرسيدس وهى تتقدم

رفيقاتها بين حشود الناس فى الميدان، يبحثن بأعينهن عمن يبدأن بالحديث معه، توقفن تقريباً وهن يتلفتن وقد اعتراهن الخجل، على مقربة منهن كانت مجموعة من الشبان والشابات الأكبر سناً يجلسون على حجارة رصيف الممشى الذى يتخلل حديقة الميدان، يتشاركون فى تناول الساندويتشات الخفيفة والبسكويت وعلب العصير التى قاموا بشرائها من المحلات والأكشاك المنتشرة حول الميدان، بالإضافة إلى ما كان يوزعه مواطنون نزلوا الميدان للدعم والمشاركة، أشار أحد الشبان للآخرين كى ينصتوا وأدار تسجيل هاتفه المحمول على قصيدة الأبنودى التى سجلها صوتاً لا كتابة بعد أن فاض به وبالشعب المصرى الكيل.

*قلت لنفسى وبعدين*

*راح تفضل كده لأمتى يا غلبان*

*بتدارى إيه، إيه باقى تانى علشان تبكى عليه*

*وطنك متباع، سرك متذاع*

*الدنيا حويطة وانت بتاع*

*ويهين المعنى الظابط*

*ويدوس بالجزمة عالحلم*

*ربنا رازقه بجهل غانيه عن كل العلم*

*ماذا تعنى بالكون.. يا يساعك يا يساعنى*

*رد يا جربان يا بن الكلب*

*أظنك حاتقولى تانى الشعب*

*وصفعنى وتنى على بطنى بالكعب.*

تمايلوا إعجاباً وضحكوا وهم يستمعون إلى القصيدة الجريئة التى يعاتب

فيها المواطن على صمته وتخاذله ويسب الرئيس الظابط ودولته البوليسية فى نَفَسٍ واحد، وبرغم الإرهاق الذى يشعرون به بعد قضاء يوم حافل كهذا كانوا فى قمة السعادة لما تحقق من نجاح للمظاهرات التى اشتركوا فى تنظيمها والدعوة لها على شبكة الإنترنت وصفحات الفيس بوك، نجاح فاق توقعاتهم، ظلوا لسنوات ومنذ أن كانوا فى الجامعة وهم يخرجون فى مظاهرات تقاوم الفساد والاستبداد وتدعو لسقوط الديكتاتور الذى أظلم حياتهم وأفقدهم الثقة فى المستقبل، تعودوا لامبالاة الناس بهم وهم يتظاهرون، ينظرون لهم بتعاطف ويتضامنون معهم من بعيد، لكن لا ينضمون إليهم إلا فى أضيق الحدود، خوفاً من قوات الأمن والشرطة التى تطوق المظاهرة بصفوف من الجنود ثم تنقض عليها بعد ذلك لتضرب وتعتقل وتنكل بالشبان والشابات تماماً كما تفعل قوات الاحتلال بشعوب الدول التى تستعمرها بل ربما تمادت فى عنفها وفاقتها بطشاً، اليوم فقط اختلف الأمر وأخذت جموع المواطنين تنضم للمظاهرات وتدعمها، بدا أن الناس فاض بهم الكيل ولم يعد بمقدورهم الصمت فقرروا أخيراً المشاركة وإعلان تأييدهم لشبان المظاهرات الذين لم ينل القمع والتنكيل من عزيمتهم وإصرارهم على مواجهة الطغيان، وهو ما حول المئات المعتادة إلى آلاف ظلت تتزايد طوال ساعات النهار حتى وصلت فى نهاية الأمر إلى ميدان التحرير واحتلته تحت حراسة قوات الشرطة التى ظلت على الحياد طوال النهار ولم تتدخل فى المسيرات الاحتجاجية الضخمة على غير عادتها، وأعلن قادتها بثقة وهم يبتسمون فى وسائل الإعلام والمحطات الفضائية المحلية والأجنبية إن ما يحدث شىء طبيعى وسمة من سمات التحضر، فالتظاهر حق للمواطنين وأن

جو الديمقراطية الذى يسود البلاد بفضل حكمة السيد الرئيس لا يرى أى غضاضة فى التعبير عن الرأى كما يحدث فى الدول المتقدمة.

لكن هذا لم يمنع القيام ببعض الإجراءات، فمع بدء دخول الليل أطلقوا قنبلتى غاز مسيل للدموع ربما كاختبار لرد الفعل بينما جموع كبيرة من المتظاهرين تصلى صلاة المغرب فى وسط الميدان، لكن رد الفعل جاء عنيفاً زلزل أرجاء الميدان بالهتافات الغاضبة خاصة من مشجعى الكرة مما جعلهم يتراجعون ويعودون إلى مراقبة ما يحدث من بعيد، أما ما أثار حيرة الشباب فهو انقطاع شبكة التليفون المحمول وتوقف الأجهزة عن العمل، لكنهم سرعان ما اكتشفوا وجود عربة غريبة المظهر تقف فى نهاية شارع القصر العينى وعليها عدد كبير من الأطباق واللواقط الهوائية ولم يكن هناك صعوبة فى إدراك أنها تقوم بالتشويش على شبكات الهواتف المحمولة فى منطقة الميدان، سرعة بديهة الشبان ومعرفتهم بعلوم التكنولوجيا جعلتهم يكتشفون أن شبكات الهاتف مازالت تعمل فى مترو الأنفاق، فتبرع عدد منهم بالتجول والنداء بين الناس بأن المحمول يعمل تحت الأرض فى أنفاق المترو، فنزل كل من يريد الاتصال حتى تجمعت أعداد كبيرة فى ممرات وأرصفة المترو كلهم يتحدثون فى هواتفهم، وذهبت محاولة الشرطة لعزل المتظاهرين هاتفياً هباء.

اتجهت أعين مجموعة الشباب الجالسين ناحية الفتيات الأربع وقد وقفن والحيرة تبدو عليهن، قامت إحدى الشابات من الناشطات فى مركز لحقوق الإنسان، تعمل مدرس مساعد بأحد معاهد البحث العلمى الحكومية واتجهت إليهن لتساعدهن.

قالت الفتاة صاحبة السيارة، لقد تابعنا المظاهرات على شاشة التليفزيون

منذ بدايتها ولم نستطع البقاء صامتات فى البيوت، قررنا أن ننضم للمتظاهرين ونشارك بما نقدر عليه، لابد أن الناس بعد هذا اليوم الطويل بحاجة إلى طعام وشراب، أحضرنا أطعمة ومعلبات وعصائر لكننا لا نعرف كيف نبدأ وعلى من نوزع هذه الأشياء؟ نخشى أن يكسفنا الناس ويرفضوا مشاركتنا، إنها المرة الأولى التى ننزل فيها إلى مظاهرة، ضحكت الشابة وقالت إننا جميعاً إخوة نتقاسم الموجود من الطعام والمياه بلا حرج وسوف نساعدكن، ثم تقدمت الفتيات وسارت نحو أصدقائها الذين رحبوا بهن وساعدوهن فى توزيع ما معهن على الجالسين فى الميدان، كانت الأكياس تحتوى ساندويتشات شاورمة ودجاج وكباب وعلب بسكويت من أغلى الأصناف، وبعد جولة واسعة فرغت خلالها الأكياس، قالت الفتيات بسعادة، إن السيارة مازال بها المزيد من أكياس الطعام بالإضافة إلى عدة كراتين مياه معدنية لم يتمكن من حملها، تطوع عدد من الشبان فذهبوا معهن ليجدوا أن الصندوق الخلفى للسيارة الفاخرة محمل عن آخره بكراتين المياه والعصائر وأكياس الطعام، قدر الشبان أن وطنية الفتيات دفعتهن للإنفاق بكرم فاشترين بما يزيد على الألفين من الجنيهات.

اعتذرت الفتيات برقة بعد أن تجاوزت الساعة الحادية عشرة بأنهن لا يستطعن البقاء لأكثر من هذا وإن كن يتمنين من أعماق قلوبهن الاستمرار حتى الصباح، وقالت صاحبة السيارة إنها لا تعانى من أى مشاكل فى حياتها لكنها تود أن ترى بلدها تتمتع بالحرية والعدالة والحياة الكريمة مثل شعوب الدول الراقية، فمصر لا تستحق هذه الحياة التعسة التى نعانى منها بسبب هذا النظام الفاسد الذى يحكم البلد.

كان أهل القاهرة بوعيهم الجمعى قد بدءوا فى التوافد على الميدان منذ إعلان الاعتصام محملين بالطعام والبطاطين معبرين عن دعمهم للمعتصمين فى مواجهة طغيان الحاكم الذى ظلم أهل مصر وتجبر عليهم وسرق أحلامهم وأموالهم، وعرفوا فى أيامه معنى ضنك العيش حق المعرفة، نزلوا من بيوتهم فى برد آخر يناير ليملئوا الميدان وثمة شعور يجمعهم بأن لحظة الحسم قد جاءت أخيراً وأنهم لن يدعوها تفلت من أيديهم، وأن الظلم والفساد الذى عانوا منه طويلاً قد آن له أن ينتهى، كانت ثورة تونس الناجحة قد أسهمت فى تأجيج المشاعر وأحيت الأمل فى نفوسهم، وأنهم يستطيعون ما استطاعه أهل تونس.

الساعة تقترب من منتصف الليل والبرد يشتد لكن الميدان مكتظ، الاتحاد يملأ القلوب بالقوة ويعطى ثقة ما تزال تتزايد منذ الظهيرة لحظة انطلاق الشرارة الأولى المطالبة بالحرية والعدالة، المطلب الأول للمتظاهرين، الجميع يتحدثون ويتناقشون وهم متدثرون بالبطاطين، حلقات متقاربة يحدث بينها تعارف سريع، يتبادلون الكلام ويتشاركون الطعام كأنهم أصدقاء قدامى يأتنسون بالصحبة التى جمعتهم على غير ميعاد ومشاعر الود والأخوة تتفتح بينهم كالزهور، ومجموعات سبق لها التعارف عبر السنوات السابقة، كثيراً ما التقت الوجوه فى الندوات والمنتديات والمظاهرات وفى عربات الشرطة أثناء الاعتقالات، نالوا نصيبهم من الشتم والضرب خلال صراعهم مع الدولة البوليسية دون أن يتراجعوا عن تحقيق أحلامهم فى وطن نظيف خال من الفساد واللصوصية والفوضى، جميعهم نشأ فى حكم السيد الديكتاتور، لم يعرفوا حاكماً غيره، يدينون له بكل قبيح وردىء فى حياتهم، لم يروا منذ طفولتهم يوماً يحمدونه له،

يسمعون من ذويهم ومن الأجيال الأكبر إن مصر كانت بلداً جميلاً نظيفاً يتعامل فيه الناس برقى واحترام، حكايات قد تضحكهم الآن وتثير تعجبهم وحسرتهم أيضاً، لقد قضوا حياتهم فى بلد يعتبر من أقذر بلاد العالم وأكثرها فقراً وفساداً، اختفت منه مظاهر الجمال والذوق التى كانت طابعاً أصيلاً فيه على يد السيد الرئيس الذى قاد البلد بغباء وبلادة حس إلى الفقر والفساد على مدى عقود وسنوات طالت إلى حد الملل وقضت على الأخضر واليابس وجمدت الحياة وحولتها إلى مستنقع راكد.

قال أحد الشبان، إنه اقترب من ضباط شرطة برتبة مقدم من الذين كانوا يطوقون المظاهرة وسأله بجراءة.

– ألستم مصريين مثلنا، تشعرون بنفس القهر والمعاناة؟

فرد عليه الضابط واجماً وبصوت خفيض.

– إذا فعلتم شيئاً فنحن معكم، سوف ننضم لكم.

تساءلت إحدى الشابات، هل من الممكن أن يحدث هذا؟ هل نستطيع أن نجعلهم فى صفنا بعد هذا التاريخ الأسود بيننا وبينهم؟ هل يقدرون على التمرد ضد النظام الذى يطعمهم ويسقيهم ويعطيهم كل هذه السلطة؟ إنهم يحاصرون الميدان بقواتهم وعرباتهم المدرعة من جميع الجهات كأنهم فى حالة حرب مع الشعب.

– ثقى أنهم يعانون أيضاً، المشكلة ليست فيهم بل فيمن يعطيهم الأوامر ويستخدمهم فى قمع الشعب ويلجأ إلى الحل الأمنى السهل فى التعامل مع أى مشكلة، حتى المشاكل التى لا علاقة لها أصلاً بالأمن، تذكرون مشكلة أنفلوانزا الطيور التى حدثت منذ عدة سنوات، وهى مشكلة بيئية صحية، هناك ثلاث وزارات على الأقل فى الحكومة تستطيع التعامل معها،

لكنه تركها ولجأ لوزارة الداخلية لتحل له المشكلة وتقضى على أسبابها بحصار عنابر الدواجن وإعدامها ومنع الفلاحين الغلابة من تربية الطيور حتى كاد يفقد مصر ثروتها الداجنة وسلالات الطيور المحلية التى تستوطنها منذ آلاف السنين، وجعل منا أضحوكة العالم، والأدهى أن مصر لم تكن من الدول الموبوءة بالمرض، لكنه ضيق العقل وضحالة التفكير.

– كم أكره هذا الرجل، لم أعد أطيقه ولا أطيق وجوده فى الحكم.

– إنه من أسوأ الحكام فى تاريخ مصر إن لم يكن أسوأهم على الإطلاق، كم أننا تعساء لأننا عشنا فى زمنه، لقد جعلنا نكره بلدنا ونكره أنفسنا.

– لم يبق أمامه الكثير من الوقت، سوف يرحل قريباً، لا أعتقد أننا سنفشل فيما نجح فيه أهل تونس، انظروا إلى هؤلاء الناس الذين خرجوا لأول مرة.

– هذا غير أهالى المحافظات الذين خرجوا معنا فى نفس التوقيت.

– نعم إنها المرة الأولى فى التاريخ التى يخرج فيها شعب للثورة بميعاد مسبق.

استمرت الحوارات تدور بين الشبان حتى انتصف الليل وتهيأ الجميع للسهر حتى الصباح فى الميدان، واعتقد معظمهم أن أعداد المتظاهرين الغفيرة ستجعل قوات الأمن تتراجع عن مهاجمتهم وتكتفى بحصارهم من بعيد، لكن صوت سرينة انطلق بغتة ممزقاً سكون الليل، صوت غبى لم يسمعه أحدهم من قبل على طول خبرتهم بالتعامل مع الأمن، يبدو أنه مستورد حديثاً ضمن أجهزة مكافحة الشغب التى ينفق السيد الرئيس الديكتاتور أموالاً طائلة فى شرائها لمكافحة الشعب وترويعه، هب الجميع

وقوفاً لدى سماعهم صوت السارينة الحاد الذى بلغ من القوة أنه تردد فى أرجاء الميدان الفسيح وهزها مكتسحاً طاغياً على ما عداه، ساد الصمت وسرت حالة من التوجس، لقد بدءوا.. بعد لحظات من انتهاء اليوم، إنه إنذار بمغادرة الميدان، ملعون أبوهم لن نغادر.. لن نخاف، تعالت الهتافات من جديد تنادى بسقوط الديكتاتور، الجميع على قلب رجل واحد، اهتزت أرجاء الميدان هذه المرة بالصوت الجماعى الغاضب لآلاف يوجهون بدورهم إنذاراً بإعلان الثورة.

انطلق صوت السرينة ملحاً ولمدة أطول هذه المرة، ولم يعد ثمة شك إنه الإنذار الأخير، مرت خمس دقائق من الترقب ساد خلالها صمت مطبق، لم يتحرك أحد من مكانه والعيون ترصد تجمعات الأمن المركزى المحاصرة للميدان ومنطقة وسط القاهرة، آلاف الجنود بملابسهم السوداء وخوذهم وهراواتهم يقفون فى صفوف منتظمة ومن خلفهم ضباطهم بعرباتهم ومدرعاتهم المصفحة، يقال إن عددهم تجاوز المليون جندى، فاق تعداد جنود القوات المسلحة بعدة أضعاف، مهمتهم المعلنة مكافحة الشغب وهو ما يعنى فى الواقع قمع أفراد الشعب فى الجامعات والمصانع والميادين والشوارع وفى أى مكان يصلح للتظاهر، أما اللصوص والمجرمون وأصحاب السوابق والخارجون على القانون فلا شأن لهم بهم ولا بأس أن يمرحوا فى ربوع الوطن كما يحلو لهم، مليون جندى من أفقر طبقات الشعب أعدهم الرئيس ليحمى بهم عرش رئاسته وليحارب بهم مواطنيه.

خرجت قذيفة واحدة كأول هدايا السيد الرئيس لتنفجر وسط الناس وتطلق دخانها الكثيف فى الميدان، حدثت حالة من الهرج لكن المتظاهرين لم

يتفرقوا، انطلقت قذيفة أخرى بعدها بدقيقة وبدأ الدخان الخانق يسرى ملوثاً الهواء الآتى من صفحة النيل، تحولت الهتافات إلى شتائم وحاول الناس التمسك بأماكنهم لكن قنابل الدخان المسيل للدموع المستوردة من دول العالم المتقدم والمنتهية الصلاحية بدأت تنهال عليهم من كل صوب معلنة مدى تفهم الرئيس لمطالب شعبه واستعداده للتجاوب معها، لم يلبث الميدان أن تحول إلى غرفة خانقة يصعب التنفس فيها بفعل القنابل القديمة الأشد فتكاً التى يتجاوز تأثيرها تفريق المتظاهرين بتسييل الدموع واحتراق العينين إلى التسبب فى الاختناق والإغماء المؤدى للوفاة، بما يعنى أن السيد الرئيس وجهازه الأمنى لا يراعون ضمائرهم ويغشون الناس حتى وهم يضربونهم.

اندفع الجنود بعد تمهيد المدفعية مقتحمين أرض الميدان لاحتلالها وتحريرها من أصحابها، بدأ الضرب بالهراوات المصنوعة من المطاط القاسى المستوردة من شتى بلاد العالم، فالسيد الرئيس وهو يقيم النهضة الصناعية الكبرى فى البلاد عجز عن صناعة معدات القمع فلم يتوان بهمته ونشاطه المعهود فى شرائها بكميات هائلة ليوفر حاجة الشعب منها.

اقتحم الجنود المدربون على القتال ومن خلفهم ضباطهم الميدان كالأسود وبدأوا فى تنفيذ مهمتهم الباسلة، من المعروف أن جندى الأمن المركزى فرز ثالث، بما يعنى أنه أدنى المجندين مرتبة من حيث التعليم، جميعهم أميون بسطاء لا يجرءون على مخالفة أوامر سادتهم الضباط خوفاً من العقاب السادى والإهانة التى تنزل بهم فى معسكراتهم حيث يعاملون كالعبيد خلال فترة تجنيدهم الإجبارى الممتدة لثلاث سنوات طويلة، العقاب

الأكبر الذى يخشاه أى فرد منهم أن يفقد دفعة وهو ما يعنى امتداد فترة تجنيده لستة أشهر إضافية فى جحيم المعسكرات، هذا العقاب تحديداً يوقع على الجنود الذين يحجمون عن ضرب الناس أو حتى يتراخون فيه، مما يجعلهم رغماً عنهم يتحولون إلى وحوش عمياء وعصى غليظة تفتك بأهاليهم ومواطنيهم.

فى هذه الليلة لم يحمل المتظاهرون من أبناء الشعب أى نوع من الأسلحة فى رسالة بالغة الدلالة على رغبتهم فى التعبير عن مطالبهم بسلام ودون عنف، لكن الرئيس ومنذ اللحظة الأولى تعامل معهم كأعداء يتجرءون على ذاته المقدسة.

لم يكن هناك مخرج فى المواجهة الأولى سوى الارتداد تحت عنف الهجوم، تجمع الشبان فى دوائر تحيط بالشابات ليتلقوا ضربات العصى بدلاً عنهن، وحاولوا الانسحاب إلى الشوارع الجانبية الآمنة نسبياً بعيداً عن كثافة الدخان وغلظة الهراوات، بينما يتتابع قصفهم بقنابل الغاز ويتعالى صوت طلقات الرصاص الحى بكثافة فى الهواء بقصد الإرهاب وبث الرعب فى نفوسهم، لكن جحافل الأمن سدت مخارج الميدان وبدت محاولات النفاذ إلى الشوارع الفرعية مهددة بخطر الاعتقال، مما دفع الناس للنزول إلى محطة مترو الأنفاق بحثاً عن الهواء ولالتقاط الأنفاس، تدفقوا بالآلاف، وفى خلال دقائق تكدست ممرات المحطة المتشعبة وأرصفة الانتظار ولم يعد هناك مكان لقدم، وبرغم ارتفاع الحرارة بسبب الزحام وثقل الهواء المشبع ببخار الماء وثانى أكسيد الكربون لكن الجو مع ذلك كان أرحم من استنشاق الدخان فى الخارج.

لم يستسغ شباب المتظاهرين فكرة الاختباء تحت الأرض فأخذوا يحاولون

الخروج من منافذ المحطة البعيدة ليكتشفوا أن الجنود حاصروها جميعاً ويلاقون من يحاول الخروج بالضرب، وفى الوقت الذى أخذت نوبات ضيق التنفس تعترى الجميع خاصة النساء بوغتوا بقوات الأمن تطلق عليهم قنابل الدخان من منافذ الهواء الوحيدة، مداخل المحطة جميعها، سرعان ما عبأ الدخان الرمادى الفاسد المحطة الواسعة حتى وصل إلى الأرصفة البعيدة، مما أدى لسريان موجات قيء جماعية وانهيار غالبية الناس على الأرض عاجزين عن التنفس، البعض أخذ يزحف من حلاوة الروح نحو المخارج لينجو من الموت اختناقاً ولو بالضرب والاعتقال.

فى هذه الأثناء وبعد أن أطبقت المصيدة على كل من نزل فاراً من قوات الأمن إلى الأنفاق، فوجئ الناس بالمترو المتجه إلى الجيزة يتوقف على الرصيف ويفتح أبوابه، كما لو كان هدية من السماء تقبلوها شاكرين قافزين إلى العربات الخالية لتمتلئ عن آخرها فى أقل من دقيقة انطلق بعدها المترو مخترقاً النفق تحت النيل ليمر بمحطة الأوبرا دون أن يتوقف ويستمر حتى ميدان الدقى، أسرع معظم الركاب بالنزول وخرجوا من المحطة أفواجاً، لملمت مجموعات الشباب شعثها من جديد وأخذوا يطمئنون على زميلاتهم وزملائهم، البعض غير موجود.. لا بأس، لابد أنهم سيستطيعون التصرف بمفردهم، بحماس العشرينيات قرروا جميعاً العودة، لن نترك لهم الميدان، لن نسمح للأمن بهزيمتنا، هذه المرة لن تمر بسلام.

# 2

قررنا العودة، قلت للجميع أنا راجع، لم أجد أحداً يمانع من مجموعتنا حتى البنات كن فى منتهى الشجاعة، لدينا شعور بأن هذه المرة ليست مظاهرة كتلك المظاهرات التى ظللنا ننظمها ونشارك فيها على مدى السنوات السابقة، فى أحسن الأحوال كان عددنا لا يتجاوز المئات نصمد لساعتين بالكثير فى مواجهة الشرطة ثم نتفرق بعد اعتقال بعضنا وضرب عدد كبير منا، فى الآونة الأخيرة لاحظت أن عساكر الأمن المركزى الغلابة يترددون فى تنفيذ الأوامر والهجوم علينا، فقدوا الكثير من غشمهم السابق وأصبحوا لا يستخدمون الهراوات بعنف ضد المتظاهرين بل يكتفون بدفعهم وهو ما كان يعرضهم للسباب من الضباط، اضرب يا ابن الـ..، اضربوا يا ولاد الـ..، نعرف أنهم أبناء ريف بلدنا الطيب مقهورون وبسطاء وجوعى يقضون ساعات طويلة فى الشوارع دون طعام، جمعوهم من القرى والكفور ودربوهم على ضرب أولاد بلدهم، ثم دفعوا بهم رغماً عنهم لتنفيذ رغبات الرئيس الشيطانية فى قمع الشعب الذى صبر على فشله فى إدارة البلاد لسنوات طالت حتى بدت بلا نهاية، لم تنفع معه حكمة المصريين التى تعاملوا بها مع حكامهم لقرون، اصبر على جار السوء حتى يرحل أو تأتيه مصيبة تريح الناس منه، لم يرحل ولم تحل عليه مصيبة، إنه الحاكم الوحيد فى تاريخ مصر الذى أعد جيشاً من المصريين لا ليحارب بهم أعداء مصر ولكن ليحارب الشعب المصرى نفسه، إن جميع ألفاظ السباب والشتائم التى تفنن المصريون فى ابتكارها عبر العصور لسب حكامهم الظلمة والسخرية منهم بأقذع

الصفات لم تنل منه ولم تؤثر فى جثته، وليته توقف عند هذا الحد، لكنه تمادى حتى وصل به التفنن فى القمع إلى استخدام أساليب إجرامية غير مسبوقة، فالضرب والسيطرة على المظاهرات أصبحت تتم باستخدام المجرمين ومن يسمون بالبلطجية، كنا نراهم عياناً وهم يأتون فى عربات الشرطة وينزلون منها بأسلحتهم ليهاجموا الناس، لا أستطيع أن أعتبر هؤلاء من أبناء مصر، فهم أولاد حرام جميعهم خونة لا دين لهم ولا شرف، بل لا أبالغ إذا قلت إنهم فقدوا آدميتهم تماماً وتحولوا إلى حيوانات بشرية خلال فترة حكم الرئيس التى أنتجت تلك النوعية البشعة من البشر الذين لا يعرفون من الحياة سوى الأكل والشرب والتناسل، أعتقد إنها المرة الأولى فى تاريخ مصر أيضاً التى ينحط فيها مستوى معاملة الشعب إلى حد استخدام المجرمين وأصحاب السوابق من قبل الحكومة لترويع الناس وإرهابهم.

نظمنا أنفسنا فى مجموعات صغيرة من أربعة أفراد حتى يسهل لنا ركوب سيارات الأجرة، كنا نعرف أن كوبرى قصر النيل مغلق بقوات الأمن وهناك استحالة للعودة عن طريقه، فاتجهنا نحو كوبرى ستة أكتوبر، عندما قلت لسائق سيارة الأجرة نريد النزول فى أقرب مكان لميدان التحرير، تردد الرجل ونظر إلينا مشفقاً، يبدو أن أثر ما تعرضنا له كان واضحاً على ملابسنا ومظهرنا خاصة الفتيات، فتحت باب السيارة وصحت فيه، ميدان التحرير بسرعة، اتفضلوا.. قالها مستسلماً وأسرع بنا حتى وصلنا إلى بداية شارع رمسيس الذى تركه الأمن مفتوحاً ليسمح لمن يريد الخروج من الميدان بالسير فيه، وربما لكى لا تتكدس السيارات فى الميدان وتعطل حركة المرور المختنقة بطبيعتها.

انتظرنا لبعض الوقت حتى حضور بقية الزملاء، بعضهم وصل بسيارات ملاكى تعاطف أصحابها معهم وأقلوهم، تجمعنا فى الساعة الواحدة إلا ربع، وقفنا فى ميدان عبد المنعم رياض تغطينا سحب الدخان بكثافة، يبدو أن إطلاق القنابل المسيلة للدموع لم يتوقف خلال المدة التى غبناها، بدأنا نشعر بحرقان العين وأخذت أنوفنا تسيل من جراء الدخان الحارق الذى يكوى فتحات الوجه، لعن الله من اخترعه ومن استخدمه، تبدى أمامنا ميدان التحرير كساحة حرب، لم أر العربات المدرعة بهذه الكثافة من قبل، يطلقون من مدافعها قذائف الدخان ومن فتحاتها الجانبية والعلوية يطلقون قنابل الدخان من البنادق، توقفنا للحظات ثم سرنا على الرصيف لنصل إلى قلب الميدان، اعتبرنا أن الحديقة التى تتوسطه هى مركز المقاومة الذى لا يجب أن يسقط، لم يزل هناك بضع مئات يتصدون للشرطة ببسالة، لكن جنود الأمن المركزى كانوا يطاردونهم بجنون وقد تلبستهم حالة أقرب للسعار، يجرون فى كل مكان ويضربون من يصادفهم كائناً من كان بقسوة مما جعل كافة المتظاهرون يتخلون عن شعار سلمية التظاهر مضطرين ويشتبكون معهم ويقذفونهم بالحجارة، مشينا على الرصيف الذى يدور حول الميدان لننضم إلى الزملاء، لكن شدة التدافع وحركة الكر والفر حالت بيننا وبين الوصول إلى قلب الميدان، رأينا رجال الشرطة السرية الذين نعرفهم بأجسادهم البغالية الغليظة وسبق لنا التعامل معهم خلال السنوات الماضية وهم ينقضون على من تطوله أيديهم ويقذفون به إلى عربات الاعتقال.

حاولنا بمن معنا من الزميلات أن نبدو كأننا لا شأن لنا بما يحدث، ونمر كمجموعة من المواطنين السائرين فى ليل القاهرة الذى لا يهدأ ولا تتوقف

حركة الناس فيه حتى مطلع الفجر ولكن هيهات، بدأنا نتوارى فى مداخل العمارات ونتوقف لبعض الوقت حتى نجد فرصة للسير، تحدثت مع الزميلات وإحداهن طبيبة تملك سيارة ركنتها فى نهاية شارع رمسيس، أن نوصلهن إلى السيارة ليرجعن إلى بيوتهن، لكنهن رفضن بإصرار وقلن جميعاً سنكمل معكم حتى النهاية، لا أدرى لم وسط هذا الظلام والرعب الذى أطبق على الميدان الواسع خطرت على بالى الآية الكريمة التى تقول، لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون، ورأيتها بمعنى جديد يتوافق مع موقفنا، إن الإنسان لا يحصل على شىء فى الدنيا حتى يبذل الجهد فى سبيله، وأننا لن ننال الديمقراطية والحرية حتى نضحى وندفع الثمن، شعرت أننا الآن فقط قد بدأنا السير على طريق الحرية، وبرغم الغشم والعنف الذى واجهتنا به الحكومة وصوت الأعيرة النارية الذى بات مسموعاً كثيفاً وحتى هذه اللحظة لم نكن نعرف إن كان يطلق فى الهواء أم فى الأجساد، لم يتسرب أى شعور بالخوف إلى نفوسنا، أصبحنا على استعداد لدفع الثمن.. أخيراً.

بصعوبة وصلنا إلى بداية شارع طلعت حرب، أردنا عبور الشارع لنكمل الطريق إلى الميدان برغم ضراوة القتال الدائر أمامنا، كانت قوات الشرطة قد أسفرت عن وجهها المخيف فى معركة مفتوحة تستخدم فيها أقصى ما لديها من قوة لإخلاء الميدان وتفريق المتظاهرين، فجأة شعرنا بالحصار يطبق علينا، لمحت أحد الضباط وهو يشير ناحيتنا ويصرخ فى المخبرين، لم يكن لدى أى نية للاعتقال هذه الليلة، جربته عدة مرات من قبل ولم أتحمل أن أرى أيدى المخبرين وهى تمتد إلى زميلاتنا وألسنتهم القذرة وهى تنال من أعراضنا، بشكل غريزى قررنا جميعاً وفى نفس

اللحظة الرجوع على أعقابنا، أمسكت بيد إحدى الزميلات وكذلك فعل بقية الشبان وشرعنا فى الجرى بأقصى قوتنا، لكننا لم نجر إلا لمسافة قصيرة حتى وجدنا أنفسنا وسط معركة دائرة على الرصيف العريض بين مجموعة من جنود الأمن المركزى وعدد من المتظاهرين، فحاولت قدر المستطاع التنحى جانباً والمرور جاذباً زميلتى، لكن أحد الجنود اعترض طريقنا فجأة فدفعته فى وجهه بيدى الخالية فترنح وانزاح لمسافة تكفى لمرورنا، لكننى شعرت به وهو يبدأ فى مطاردتنا، لحظتها قررت أن أدخل فى أول مدخل عمارة يصادفنى، صعدنا السلم جرياً وسمعت صوت أقدام من خلفى فتلفت متحفزاً لأجد اثنين من زملائنا، وصلنا للطابق الثالث وتوقفنا نحن الأربعة لننصت السمع ونتبين إن كانوا مازالوا يطاردوننا، كانت أصوات الجلبة وصياح الجنود فى الشارع مازالت تصلنا بخفوت، ظللنا فى مكاننا لنلتقط أنفاسنا ونكمن بعض الوقت حتى يهدأ الشارع، ونحن نتوقع بين لحظة وأخرى أن يصعدوا للقبض علينا، سألت واحدة من زميلتينا بجزع عن بقية الزملاء، فقلت لها إنهم سيستطيعون التصرف ولا داعى للقلق بشأنهم، فى هذه اللحظة انفتح فجأة باب أحد الشقق وأطل منه وجه طيب لرجل أشيب الشعر يرتدى روباً صوفياً فاخراً، نظر إلينا متفحصاً ثم أشار لنا بالدخول، ترددنا خجلاً فآخر ما كنا نريده إزعاج الناس فى بيوتهم، لكنه قال بصوت خفيض وبنبرة حازمة، تعالوا.. اتفضلوا.

رحب بنا الرجل ونحن ندخل بيته قائلاً، لا تقلقوا أنتم فى مأمن الآن، بعد أن جلسنا فى الصالة جاءت زوجته وسلمت علينا وهى تقول ربنا يسلمكم وينصركم، ثم ذهبت إلى المطبخ لتعد لنا الشاى، كانت رائحة الدخان ظاهرة فى جو الشقة برغم غلق النوافذ، نظرت إلى الساعة فوجدتها

تجاوزت الواحدة والنصف بعدة دقائق، ساعدنا الشاى الساخن على تخفيف ما نعانيه من احتقان فى الأنف والحلق بسبب استنشاق الدخان، استأذنت الرجل فى متابعة ما يجرى فى الميدان من خلف شيش الشرفة التى تطل عليها الصالة فأشار لى قائلاً تفضل.

مازالت الشرطة تقاتل الناس بشراسة، وبدا أنها تنجح فى اقتحام الميدان وإخلائه من المتظاهرين، شعرت بالأسف واشتعلت غضباً، بعد كل ما فعلناه هل يعود الحال إلى ما كان عليه؟ إلى متى سيستمر هذا القهر والظلم؟ هذه الجموع التى خرجت اليوم من عدة محافظات بشكل لم يحدث من قبل هل سترضى بالرجوع خالية الوفاض؟! لا.. إنها الجولة الأولى فقط، رجعت إلى مقعدى فى الصالة، نظر إلىّ مضيفنا ويبدو أنه لاحظ توترى فابتسم قائلاً.

– لقد كنت فى الشارع ورجعت إلى المنزل بعد المغرب، بحكم سكنى فى وسط القاهرة أتابع المظاهرات التى تحدث منذ عدة سنوات، من المؤكد أن ما حدث اليوم كان أمراً مختلفاً، هذه الآلاف التى خرجت وتجمعت فى الميدان بهذه الكثافة تنبئ بأن هناك جديداً، هذا الحماس والإصرار لم أره من قبل، منذ قليل كنت أتابع المحطات الإخبارية وعرفت أن المظاهرات بدأت فى القاهرة والإسكندرية والإسماعيلية والسويس فى نفس الوقت تقريباً.. يبدو أن مصر قامت أخيراً، ومصر عندما تقوم فإنها تكتسح من يقف فى طريقها كائناً من كان.

– هل لدى حضرتك أمل أننا سنحقق شيئاً هذه المرة؟

– نعم أنا على يقين من هذا، هل تعرف المثل الذى يقول، اتق شر الحليم إذا غضب.

– نعم بالطبع.

– ليس هناك شعب أكثر حلماً من شعبنا، هذا الشعب قد وصل إلى مرحلة الغضب، ما رأيته اليوم فى الشارع ومن شرفة منزلى المطلة على الميدان وما سمعته فى نشرات الأخبار، يؤكد أن شعب مصر الذى صبر طويلاً وتحمل كثيراً قد غضب اليوم على من ظلموه ونهبوه عبر السنوات الأخيرة، لقد جاء يومهم أخيراً، صحيح أن هذا اليوم قد تأخر، لكن المهم أنه جاء.

لم يلبث أن انضم الزملاء إلى الحوار مع الرجل الكريم الذى أنقذنا من الموقف الحرج الذى كنا فيه وربما من الاعتقال، كلامه أعطى لنا الثقة والأمل، بقينا فى ضيافته حتى الثالثة صباحاً، لم يتركنا نغادر بيته إلا بعد أن تأكد أن الميدان قد هدأ وتوقف إطلاق الرصاص والقنابل، سلمنا عليه وشكرناه ونزلنا إلى الشارع لنجد قوات الشرطة قد أحكمت قبضتها على الميدان ونجحت فى إخلائه، بدا المنظر كئيباً مظلماً وسيارات الأمن بمختلف أنواعها وأحجامها تتراص أمامنا فى كل مكان، والأفراد من ضباط وجنود منتشرون بكثافة لتأمين الشوارع والميادين فى منطقة وسط القاهرة، ابتسمنا ونحن نسير ونراهم يقضون ليلتهم ساهرين بينما نحن فى طريقنا إلى بيوتنا لننام.

أخرجت التليفون من جيبى وحرصت أن يرى سائق سيارة الأجرة أننى أسجل رقم سيارته بعد أن ركبت زميلتينا معه، ودعتهما ومضيت فى سيارة أجرة أخرى برفقة زميلى نشق شوارع القاهرة المتوترة بشكل ملحوظ بعد اليوم الصاخب الذى لم تشهد له مثيلاً منذ ثورة 1919 كما قال لنا مضيفنا.

وصلت إلى البيت فى الرابعة صباحاً، وجدت الجميع نائمين، كنت قد اتصلت بأبى فى نحو الثانية وطمأنته، هرعت نحو جهاز الكمبيوتر وفتحت الفيس بوك لأتابع الموقف وأرى تحركات الأصدقاء والزملاء ورسائلهم، أسعدنى ما وجدته من حماس وإصرار على المواصلة فى الغد، كان هناك الكثير من الأفلام التى التقطت للمظاهرات فى مختلف أنحاء البلاد مرفوعة على الفيس واليوتيوب، أخذت أرفع بدورى ما سجلته بكاميرا المحمول على صفحتى وأرسله إلى الأصدقاء والجروبات، أزعجنى معرفة أن هناك عدداً كبيراً من الزملاء ما بين معتقل ومختف، لكننا بالطبع كنا مدركين أن ثمن الحرية غال وأننا سندفعه لا محالة، كتبت فى رسائلى إننى على استعداد لكل شىء حتى الموت والاستشهاد فى سبيل حرية بلدنا وكرامة شعبنا، لم أكد أغلق الجهاز حتى سمعت أذان الفجر فتوضأت وصليت ثم دخلت السرير ورحت فى نوم عميق.

***

فى اليوم التالى خرج لحن الحرية رائعاً تلقائياً فى الهتاف المنغم الذى توحدت عليه الجماهير، الشعب يريد.. إسقاط النظام، انتشر الهتاف وأصبح شعاراً نقلته وكالات الأنباء والمحطات الفضائية كعنوان للمظاهرات، وقرب المساء بدأت بوادر فكرة جمعة الغضب فى التفتح وتنتشر بيننا وتلقى الاستحسان، وساعد على انتشار عبقها محاولات الحكومة الساذجة بقطع شبكة النت والمحمول، أنا شخصياً لا أعرف تحديداً كيف تمكنا من متابعة التواصل بيننا بدونهما لكننا فعلناها، الشعب المصرى يمتلك عبقرية جماعية خاصة فى مواجهة الأزمات الكبرى، يتنبه الجميع ويتحدون أمام الخطر القادم أياً كان، ويقدم كل فرد

على تقديم ما يستطيعه من مال وعتاد للدفاع عن مصر، الشعب الوحيد فى العالم الذى استطاع صد زحف جيوش التتار والمغول التى اجتاحت الأرض وقضت على من وقف فى طريقها من الممالك والدول حتى وصلت إلى حدود مصر، التى لم تهزم جيوشهم وحسب بل قضت عليهم وأفنتهم من الوجود، حتى إن بقاياهم رجعوا إلى ديارهم شراذم مبعثرة لا حول لهم ولا قوة، والأعجب أن معظمهم دخل فى الإسلام عبر رحلتهم الطويلة إلى بلادهم.

هذه المرة كنا نواجه عدواً شرساً يبدو كأنه جزء منا لكنه جزء مريض كالداء الخبيث سرى فى بلدنا وسيطر على قلبها حتى انحدر بها إلى القاع، فى هذا اليوم ارتفعت سخونة التعامل، أغلقت قوات الأمن ميدان التحرير وسدت منافذه، أصررنا على البقاء أمام دار القضاء العالى وفى الشوارع الرئيسية فى وسط القاهرة طوال ساعات اليوم حتى لا نعطيهم الفرصة للراحة، نعلم أن الحكومة الديكتاتورية لا ترحمهم بدورها وتصدرهم فى وجوهنا لتحتمى بهم، وهو بلا شك ما سيوقعهم بين طرفى كماشة.

يوم الخميس نزلت وسط القاهرة بلا تليفون ولا نت لكننى استطعت مقابلة الزملاء والزميلات جميعهم، قضينا اليوم نتنقل من مكان لمكان ونتعرض لمناوشات الشرطة، لاحظت أن البلطجية والمجرمين قد انتشروا بشكل ملحوظ بين صفوفهم، وإنهم يتعمدون التحرش بالمتظاهرين، لكن شعار سلمية المظاهرات التى أصر الجميع عليه ورفع الأيدى الخالية من السلاح فى الهواء وبالطبع كثافة الأعداد جعلهم إلى حد ما لا يجدون فرصة لممارسة دورهم الوضيع، لكن ما أثار قلقنا هو اختفاء بعض

الزملاء وعدم إمكانية الاتصال بهم لقطع شبكات المحمول، هؤلاء الزملاء هم من أكثرنا نشاطاً والأمن يعرفهم بالاسم ويعرف عناوينهم سواء فى السكن أو العمل، عرفنا بعد ذلك عندما ظهروا فى يوم الجمعة إنهم رتبوا أمورهم بحكم تمرسهم على مطاردة الأمن لهم حتى لا يقبض عليهم، منهم من ذهب إلى أقارب له فى حى بعيد ومنهم من شعر بتعقب رجال الشرطة السرية فغافلهم وتسلل إلى منزله وظل لليومين لا يضىء نور غرفته ولا يفتح نافذتها ولم يغادر باب شقته إلا ساعة صلاة الجمعة، لكن هذا لم يمنع أن هناك آخرين قد قبض عليهم بالفعل من أماكن شتى فى نهاية ليل الثلاثاء سواء أثناء المواجهات أو بعد مغادرتهم الميدان.

الشعب يريد.. إسقاط النظام، كنت أشعر بقلبى يهتز وأنا أردد هذا الهتاف مع الناس، أعطانا شعوراً جديداً مختلفاً عما رددناه وهتفنا به من قبل، شعور بالقوة تبثه كلمتى الشعب التى تعطى معنى الوحدة والترابط والاتفاق الجماعى، ويريد التى تعبر عن الإرادة، إنها المرة الأولى منذ سنوات طالت لأكثر مما ينبغى التى يخرج فيها الشعب ليعلن عن رغبته فى مطلب واضح ومحدد، إسقاط النظام بما تعنيه من رفض للحكم والرغبة فى عدم استمراره، فلم تعد لدى هذا النظام أى نية للإصلاح، وحتى لو توفرت النية وهو أمر أصبح مستبعداً فلم تعد لديه القدرة ولا الكفاءة، هذا الهتاف كان المؤشر الأول على تحول المظاهرات إلى ثورة شعبية جامعة لها مطلب وهدف محدد تسعى إليه، قبل ذلك كنا نهتف بجرأة مطالبين بسقوط الرئيس، نذكر اسمه علانية ونطالب بسقوطه والناس ينظرون إلينا من بعيد بتعاطف عبر الحلقة التى تصنعها قوات الشرطة وهى تطوقنا ثم يسيرون فى طريقهم دون أن يقدموا على أى

محاولة للمشاركة، لا أستطيع القول أنهم كانوا يخذلوننا ولكنهم كانوا يؤثرون السلامة ويبدون لامبالاة تجاه المظاهرات، لكن فى داخلهم كانوا غاضبين ورافضين لنظام الرئيس ودولته البوليسية التى حاصرت الناس وخنقتهم وزرعت اليأس فى الأرض والصدور بالقمع والتخويف، ربما كان الناس ينتظرون اللحظة المناسبة للثورة على وضعهم المزرى، لعل الرئيس نفسه ساعد على ذلك بما أظهره من احتقار لشعبه بعد الانتخابات البرلمانية الأخيرة فى حكمه وتفاخره بالتزوير فى خطبة علنية استهزأ فيها باعتراض الشعب على ما قام به من تلفيق وتزييف، إنها لحظته الأخيرة والفارقة التى أدرك الشعب بعدها أنه لا ينبغى له الاستمرار فى الحكم، وأن هذا الرجل قد استنفد معين الصبر حتى النهاية.

أدرك الناس فى يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من يناير أن وقت الصمت واللامبالاة قد انتهى، تحركنا يومها بالمظاهرة الحاشدة من أمام دار القضاء العالى ونقابة المحامين حتى شارع الكورنيش ثم سرنا باتجاه مبنى التليفزيون وأكملنا السير إلى حى بولاق العريق الذى خرجت منه ثورة أهل القاهرة على الحملة الفرنسية وقاوم سكانه قوات الجيش الفرنسى بصلابة وعزيمة جعلت احتلال الفرنسيين لمصر جحيماً، دخلت المظاهرة شارع بولاق الرئيسى وسارت فيه فأخذ السكان فى أول الأمر ينظرون لها بترقب ثم بدأوا ينزلون من بيوتهم وينضمون إلى نهرها المتدفق بينما أصحاب المحلات يغلقون محلاتهم تباعاً ويهرعون بعمالهم للمشاركة فيها، كان مشهداً غير مسبوق جعل المظاهرة تخرج من الحى وقد تضاعف حجمها مرات عديدة، والناس يقبلون من كل مكان للانضمام إليها حتى دخلنا ميدان التحرير دخول المنتصرين.

ظل ميدان التحرير محور الحركة والمركز الذى تدور من حوله المظاهرات، كانت الجماهير الغاضبة تضغط من جميع الشوارع وتحاول اقتحام الميدان واحتلاله لكن متاريس الشرطة بعرباتهم المدرعة وصفوف الجنود الذين تم تدعيمهم بقوات إضافية من خارج العاصمة حالت دون ذلك، كانت هذه المناوشات تهدف فى المقام الأول إلى استنزاف الشرطة والحيلولة بينهم وبين الراحة انتظاراً ليوم الغد الجمعة الذى تم الاتفاق على أنه يوم الحسم من الجميع.

بعد ثلاثة أيام من الوجود المستمر فى شوارع وسط القاهرة نشأت حركة تنظيمية تلقائية لترتيب أمر الطعام والشراب وقضاء الحاجة، الجميع يقفون فى طوابير للحصول على ما يريدون لشراء سندويتش أو علبة كشرى أو لدخول الحمام دون تذمر أو شكوى أو تدافع، لا يتخطى أحد دور الآخر، ولا يعلو لسان بالسخط والشتائم كما جرت العادة لسنوات أثناء وقوف الناس لأى غرض فى طوابير، زالت العصبية فجأة واختفت الروح العدوانية التى وصمت سلوكنا طوال الفترة التى جثم فيها الرئيس بظله الثقيل على صدورنا، اكتشفنا فى هذه الأيام القصيرة أننا شعب متحضر وراق، وأن الحال التى كنا عليها دخيلة علينا ولا تمت لنا، سببها الذى ضيّق علينا العيش وحاصرنا فى الأرض بالعشوائيات والفوضى وغياب القانون وزرع القبح فى ربوع مصر، حتى أصبح الشارع لمن غلب بنفوذه أو بماله أو صلاته وضاع الحق ولم يعد للفقير مكان ولا دواء ولا رغيف.

# 3

يوم الجمعة.. يوم الغضب، احتشدت الحكومة بكل قوتها لمواجهة ما سيسفر عنه غضب شعب بأكمله، أغلقت الجوامع الكبرى فى القاهرة ومنعت إقامة صلاة الجمعة فيها وتمت محاصرتها بقوات الأمن للحيلولة بينها وبين المواطنين، منذ سنوات اعتاد الشعب المصرى فى الأزمات على اتخاذ صلاة الجمعة موعداً للخروج فى مظاهرات يعبر فيها عن مطالبه.

ظل الجامع الأزهر هو مركز التجمع ونقطة الانطلاق التى تخرج منها الشرارة الأولى، منذ عصر الدولة المملوكية والمصريون يتخذون الأزهر حصناً لهم فى موجهة عسف حكام وأمراء المماليك وجورهم وتجبرهم وضيق أفقهم وغبائهم، هذه الوقفات كانت تهز أركان الدولة وتصيب السلاطين بالذعر، وهو ما جعل نابليون يضرب الجامع الأزهر بالمدافع التى نصبها على القلعة ويدخل بكتائب فرسانه صحن الجامع ليقمع ثورة المصريين ضد حملته.. ولكنه لم ينجح واضطر فى نهاية الأمر إلى الانسحاب بجيوشه من مصر كلية.

الأمر الذى حدا بجمال عبد الناصر فى بداية حكمه إلى استغلال مكانة الجامع فى قلوب الشعب، تلك المكانة التى قوضها بعد ذلك وهو يؤسس دكتاتورية الرئاسة، ووقف ليخطب على منبره حاشداً جماهير الشعب فى حرب سنة ستة وخمسين التى تسبب فيها جراء اندفاعه وحداثة سنه فى التعامل مع دول أوربا الاستعمارية!

هذا الجامع تم تطويقه مساء ليلة الجمعة بقوات الأمن المصرية هذه

المرة، لم يستطع أى مسئول ولا الرئيس الديكتاتور أن يأمر بمنع إقامة صلاة الجمعة فيه، لكنهم بذلوا كل ما يستطيعون لمنع خروج المظاهرات منه وتجمع جماهير الشعب فى صحنه الواسع، ففرضوا حصاراً حديدياً لا يجتازه المواطن إلا بعد أن يبرز بطاقته الشخصية.

ترك الناس الجامع الأزهر للأمن يحاصره كيفما شاء وأدوا الصلاة فى الجوامع والزوايا الكثيرة الموجودة فى أرجاء القاهرة، ثم خرجوا بعدها متوجهين إلى ميدان التحرير، كانت تلك هى لحظة تحول المظاهرات إلى ثورة شعبية جارفة.

سيل عارم، طوفان بشرى زلزل الأرض وهو يزحف شامخاً إلى قلب العاصمة قادماً من جميع أحيائها، الحكومة أقامت المتاريس حول ميدان التحرير كأنه قلعة الحكم، الطلائع الأولى التى وصلت إلى مشارف الميدان قوبلت بعنف شديد وضرب بالقنابل الدخانية والطلقات المطاطية وشىء من الرصاص الحى...

فى البداية دخل أهل القاهرة على المتاريس وهم يرفعون أيديهم الخالية من السلاح فى الهواء ويصيحون.. سلمية نريدها سلمية، خاطب أصحاب الصفوف الأولى الضباط والجنود، أنتم إخوتنا وأهل بلدنا، دعونا نمر بسلام، لكن الرد جاءهم قاسياً ظالماً يحمل سمات الغطرسة والتعالى التى ثاروا عليها ولم يعد لديهم الصبر على الرضوخ لها.

بعد أخذ ورد وجدال تخلله زعيق وصياح ومشاحنات جانبية وعصبية من جانب الضباط الذين وجدوا أنفسهم محاصرين بين غضب الشعب وأوامر النظام الحاكم المتعنت الذى أبقاهم لأربعة أيام فى الشارع دون راحة، بدأ الجنود فى إنزال الواقى البلاستيك الشفاف من أعلى الخوذ لتغطية

وجوههم، أدرك المخضرمون من المتظاهرين أن هذا يعنى الاستعداد للهجوم والضرب المبرح بالهراوات فاستعدوا بدورهم وتهيأوا للمعركة القادمة لا محالة.

أثناء السير وفى خضم التدافع مع قوات الأمن وصلت مظاهرة، تلقى أفرادها دفعات من الضرب، إلى أحد مقار الحزب الوطنى الحاكم، لمح المتظاهرون صور الرئيس معلقة على واجهة الدور الثانى، لم يتحملوا نظرته البليدة وابتسامته السمجة وهى تطل عليهم، أسرع عدد من الشبان باقتحام المبنى وصعدوا إلى الشرفات وأخذوا يقطعون الخيوط التى تربط الصور المطبوعة على رقائق من البلاستيك الفاخر، تساقطت الصور فتلقفها المتظاهرون وقد تملكهم الغضب بالتمزيق والدهس بالأحذية وهم يصيحون فى رجال الشرطة.

– أهوه.. رئيسكم أهوه؟!

نظر الضباط بوجوم ثم أشاحوا بوجوههم وأثر الإرهاق وسهر الثلاث ليال فى الشارع ظاهر عليهم، كانوا فى حالة تقترب من الإعياء وهم يخوضون المعركة الأخيرة للنظام الذى ينادى الناس بسقوطه، ويواجهون غضب شعب يتدفق كالنهر الثائر على جميع منافذ الميدان بإصرار وعزم بدا أنه لا سبيل لصده أو السيطرة عليه، الأعداد تتزايد بضراوة مع تقدم الوقت فى مدد لا ينقطع من جميع أحياء القاهرة، كلهم يعلنون رفضهم للرئيس ولاستمراره فى الحكم، يعلنون أنهم موجودون كما يستحق أن يوجد الإنسان، وأنهم ليسوا حجارة أو شجراً أو أياً من الموجودات التى لا تملك التعبير عن نفسها ولا الدخول فى علاقة مع غيرها من الموجودات، لقد خلق الله الإنسان ليؤثر فى الأرض وفى غيره من المخلوقات، فهو لا

يستطيع مجرد الوجود فحسب لأنه الكائن الوحيد الذى عليه أن يحمل مسئولية وجوده، فتخليه عن تلك المسئولية ينقص من كيانه الإنسانى ويحيله إلى كائن أدنى لا يملك القرار ولا التفاعل مع ذاته نفسها فضلاً عن الذوات الأخرى، يفقد حريته التى هى جزء أصيل من وجوده سواءً بإرادته أو بالقهر والإرغام فيفقد معها إنسانيته ويتحول إلى موجود عاجز غير مؤثر.. مجرد صخرة أو شجرة لا تملك لنفسها شيئاً، هكذا أراد الرئيس ورجاله لأفراد الشعب عبر سنوات طالت بغير حساب، طغى بوجوده على وجود ملايين الأفراد، صال وجال وأخذ وأعطى لمن شاء ومنع من شاء وتحكم وتجبر وقهر وسرق ونهب وأحيا وأمات وزور وزيف وخلع ثوب الحياء فلم يعد يخجل، وهل يخجل الإنسان من الحجارة والأشجار؟؟!!

الطاغية يجعل من نفسه الإنسان الوحيد فى بلد تعداده ملايين الأفراد وجودهم الإنسانى منقوص غير مكتمل، الغضب على هذا الوضع ورفضه بالثورة على الطاغية وإزاحته هما السبيل الوحيد لاسترداد إنسانيتهم ووجودهم.

تمزيق الصورة ودهسها بالأحذية كان إعلاناً عن الوجود واسترداداً للإنسانية التى سلبت بالطغيان أكثر مما هو رغبة فى الانتقام.

***

لم تجد كل الوسائل الأمنية المتعارف عليها من قديم مع هؤلاء الشبان، جيل جديد مختلف صعب المراس لا يلين ولا يرضخ، تربى فى زمن القسوة والشح، فلم يعد يخشى شيئاً لأنهم لم يعد لديهم ما يخسرونه، يتعامل الجهاز الأمنى معهم بالترويع والترغيب، وبرغم ما يبديه ضباطه

من قسوة وغلظة فى التعامل معهم فإنهم يخشونهم فى قرارة أنفسهم، يقبضون على الشاب منهم ويحتجزونه لأسابيع، يهددونه ويرهبونه ويضربونه حتى يتعبوا ثم يفرجون عنه وهم يعتقدون أنه سيلزم بيته ويتأدب، لكنهم يفاجأون به فى الشارع بعد يوم واحد يهتف فى المظاهرات، وقد ازداد شراسة وعنفاً فى مواجهتهم بعد الاعتقال.

مشكلة شباب هذا الجيل الذى نشأ خلال فترة حكم الرئيس الديكتاتور الطويلة أنهم مترابطون وبارعون فى استعمال التكنولوجيا الحديثة، يعرفون بسرعة أسماء زملائهم المقبوض عليهم ويشنون حملاتهم عبر شبكات الإنترنت ويبلغون المحطات الإخبارية ويفضحون نظام الحكم أمام العالم، الرجل الكبير لا يحب الفضائح خاصة أمام العالم الغربى، لا يحب أن يبدو أمامهم كحاكم مستبد يحكم بالحديد والنار برغم أنهم يعرفون إنه كذلك ويضعون اسمه فى قائمة الطغاة بالفعل، لكنه يتغافل عن هذا ويرسل لضباطه الأوامر بفعل ما يشاءون على أن يتجنبوا الفضائح، وهو ما جعل رجال الأمن بين شقى الرحى وأسهم فى توترهم وارتباكهم، لابد لهم من الحفاظ على المظهر الخارجى للديمقراطية، وفى نفس الوقت يؤدون عملهم فى قمع الناس وكتم أنفاسهم، معادلة مستحيلة ولكنها مطلب الرجل الذى أصبح الخداع والتزييف أسلوبه المفضل وربما الوحيد فى إدارة البلاد.

ليس للإنسان إلا ما سعى، الحرية والعدالة والكرامة الإنسانية الهدف الذى تسعى هذه الحشود من أجله، وجود الرئيس يقف عقبة أمام تحقيق الحلم بكل ما هو جميل فى الوطن، ارحل.. ارحل، كلمة واحدة اتفق عليها الجميع، ليست مجرد كلمة بل مطلب لم تعد الحياة متاحة إلا بتحقيقه،

حياتنا.. حياة شعب بأكمله فى مقابل حياة رجل واحد، معادلة غير أخلاقية لا تستقيم مع المنطق أو العقل أو الضمير لكنها تعكس الواقع الذى لم نرض به ورفضناه بالكلام طوال سنوات وبدأنا الآن فقط نرفضه بالعمل.

وقفنا فى أرض الجزيرة قرب تمثال أحمد ماهر باشا، قطعنا مشواراً طويلاً للالتفاف حول ميدان التحرير، لم نتمكن من الوصول عبر شارعى الجلاء ورمسيس ومداخل وسط القاهرة، تحولت قوات الشرطة إلى جيش منظم يحتل بلدنا ويحاربنا، بدا الأمر كأننا دولة مستعمرة تحارب من أجل الاستقلال، من المؤكد أن الأجيال التى كافحت ضد الاحتلال الإنجليزى لم تعان قسوة ما نجده من حكومتنا الوطنية، عندما اقتربنا من الكوبرى وجدنا قرابة الألف مواطن مصرى أغلب الظن أنهم قدموا مبكرين من حى الدقى القريب والشرطة تحاصرهم والعساكر الفرز ثالث الأجلاف يضربونهم بالهراوات ضرباً مبرحاً إلى الحد الذى كان صوت ارتطام العصى بأجسادهم يُسمع عن بُعد بينما المخبرون الحثالة ينقضون على من يحاول الإفلات منهم ليعتقلوه متعمدين أن يسحلوه على الإسفلت لعدة أمتار قبل أن يلقوا به فى عربة الاعتقالات.

كنا عدة مئات تجمعنا من مناطق شتى للوصول إلى ميدان التحرير عبر كوبرى قصر النيل، المخضرمون منا الذين خاضوا غمار المظاهرات من قبل لفوا أذرعهم وأرجلهم بشرائط من القماش لتخفيف أثر هراوات العساكر وعصى المخبرين، ووضعوا تحت فانلاتهم الداخلية ألواح كرتون للحماية من الرصاص المطاطى الذى يحرق قماش الملابس ويخترقه ليحرق الجلد لكنه يلتصق بالكرتون ولا ينفذ منه إلى الجسد.

إإإإيه.. صحنا ونحن نندفع جرياً لدعم إخواننا، نار الغضب التى أشعلها منظر الضرب أنستنا شعار السلام الذى رفعناه منذ أول يوم، تفرق العساكر تحت ضغط الهجوم ونحن ندفعهم ونسبهم ونزعق فيهم وننعتهم بالخونة، ويبدو أنهم كانوا يشعرون بتأنيب الضمير من الأصل مما جعلهم يتأثرون من اتهامهم بالخيانة فأخذوا يكفون أيديهم ويتوقفون عن الضرب، انفتحت فرجة اندفع منها معظم المحاصرين جرياً فارين بعيداً عن أيدى العسكر، ارتددنا بدورنا مبتعدين لنعيد تجميع صفوفنا.

أمامنا المتاريس وصفوف العساكر تحول بيننا وبين الوصول إلى الميدان الذى نريد أن نعتصم فيه بسلام، وبجانبنا يقف سعد زغلول زعيم ثورة 1919 على قاعدة تمثاله رافعاً يده كأنه يحيى أحفاده وأبناء شعبه ويشد من أزرهم، الكوبرى مغطى بالمدرعات والعربات الزرقاء بحيث يبدو اقتحامه عملا انتحارياً أو جنونياً، لكننا سننجح، هناك شعور أقرب لليقين بأننا سننجح ليس فقط فى اقتحام الكوبرى وعبوره إلى الميدان ولكن فى تحقيق هدفنا الرئيسى، إزاحة الـ... وإسقاط نظام حكمه.

لم نتوقف عن الهتاف بينما عددنا يتزايد طوال الوقت بانضمام مجموعات جديدة من عشرات الأفراد، مر بعض الوقت قبل أن يشرعوا فى إطلاق قنابل الدخان علينا، تقدمت عدة عربات مدرعة وخرج من فتحاتها العلوية محاربون مدججون بالسلاح يحملون بنادق قاذفة، تتابع الرمى علينا، وفى لحظات ملأ الدخان الجو، لكن المفاجأة التى أسعدتنا أن الهواء كان يهب فى اتجاههم ويحمل معه الدخان ليلقيه فى وجوههم، أخرج معظمنا الكوفيات المبللة بالخل وتلثم بها واستنشق آخرون ثمار البصل التى يحملونها فى جيوبهم.

يبدو أن عددنا القليل أغراهم بالهجوم علينا، أصدر الضباط أوامرهم للجنود بالتقدم بينما اخترقت المدرعات المزودة بخزانات المياه صفوف الجنود وبدأت فى إغراقنا بالماء، معظم العربات كانت محملة بماء رمادى كريه الرائحة، ماء مجارٍ بلا شك.

كنا على شفا الاعتقاد بأن الهزيمة ستحيق بنا، وأن محاولتنا لاقتحام الكوبرى ستبوء بالفشل حتى بدأ صوت هدير يصلنا من بعيد، فى البداية لم نتمكن من تحديد هوية هذه الأصوات التى تصلنا، معنا أم معهم؟؟ خشينا أن تكون قوات إضافية قد أتت لتفتك بنا، توقفنا لنتبين طبيعة الصوت، بعد لحظات طويلة بدأنا نميز الهتاف بسقوط الرئيس، انشرحت صدورنا وطلائع المظاهرات القادمة من إمبابة وبولاق الدكرور وأحياء الجيزة تظهر فى نهاية الشارع وهتافها يعلو مع الوقت ويملأ الأفق، آلاف مؤلفة من أولاد البلد سرعان ما سدوا الشارع الواسع ما بين تمثالى أحمد ماهر وسعد زغلول مزلزلين أرض الجزيرة بدبيب أقدامهم وسمائها بهتافاتهم المدوية، تشجعنا وتقدمنا نحو بداية الكوبرى رافعين الأيدى من جديد ونهتف، سلمية.. سلمية نريدها سلمية، خاطب الذين فى الصف الأول الضباط الواقفين أن يسمحوا للمظاهرة بالمرور، لكنهم لم يردوا وبدت فى قلوبهم البغضاء كأننا لسنا أبناء وطنهم وكأنهم ينتمون إلى جنس آخر لا يمت لنا بصلة، هنا كان لابد لقوة العدد أن تحدث أثرها، شعرنا بضغط الكتلة البشرية الهائلة يدفعنا إلى الأمام دفعاً لا قبل لأحد بصده، بدأنا فى التحرك وإزاحة المتاريس وصفوف الجنود المتراصة الذين أدوا واجبهم حتى آخر لحظة فانهالوا علينا بهراواتهم الغليظة، هذه المرة كانوا فى موقف الدفاع، وأغلب الظن أن شدة الخوف دفعتهم لاستخدام

سلاحهم ضدنا قبل أن يتفرقوا بعد لحظات متشتتين على الكوبرى مفسحين لنا الطريق.. أخيراً.

تقدمت المدرعات ومن خلفها العربات الضخمة مهاجمة الجموع الغفيرة بوابل كثيف من الرصاص المطاطى المؤذى الحارق للجلد، أما قنابل الدخان فقد غيروا أسلوبهم فى إطلاقها فبدلاً من قذف القنابل فى الهواء لتسقط على مسافة وسط الناس أصبحوا يصوبونها على ارتفاع منخفض فى الأجساد مباشرة لتصيب الصدور والرؤوس، لكن الإمبابيين والبولاقيين كانوا يمسكون القنابل بفدائية وهى ما تزال تدور على الأرض ثم يعيدون قذفها على قوات الشرطة التى كانت الرياح ترتد عليهم بدخان قنابلهم وتعميهم به بأكثر مما تفعل فى المتظاهرين، ولم يلبث الشبان فى التحول من موقف الدفاع إلى الهجوم، كانوا قد خرجوا مستعدين، اندفعت مجموعات منهم يحملون قطع قماش مبللة نحو عربات البوكس وعربات نقل الجنود الضخمة فسدوا شكماناتها مما جعل محركاتها تتوقف وتتحول إلى جثث حديدية عاجزة لم تلبث أن أصبحت بعد ثوان قليلة قطع خردة تتصاعد منها النيران، فى نفس الوقت اندفعت مجموعات أخرى تحمل علب إسبراى أسود وأكياس بلاستكية مملوءة بالزفت السائل، جروا بشجاعة ورشوا نوافذ وواجهات المدرعات باللون الأسود، وقذفوها بأكياس الزفت فصنعت طبقة معتمة على الزجاج أفقدت سائقيها الرؤية وجعلتهم يتخبطون فى عماهم ويصادم بعضهم بعضاً وهم يحاولون التراجع أو التحرك من أماكنهم لأى اتجاه.

بدأنا فى مهاجمة المدرعات ومحاولة تسلقها لكن سطحها الفولاذى الأملس الخالى من النتوءات جعل تلك المهمة فى غاية الصعوبة،

بالإضافة إلى أن الضباط الذين بداخلها كانوا يخرجون من الفتحة العلوية ويرشون سبراى حارقاً للعيون من عبوات كبيرة أشبه بأسطوانات الإطفاء مما جعل الشبان الذين أقدموا على المحاولة يتراجعون مرغمين ليسرع غيرهم برشقها بالحجارة وزجاجات البنزين المشتعلة، ثم أحاطوا بإحدى المدرعات وبذلوا محاولات مستميتة لقلبها على أحد جوانبها كما فعلوا بالعربات، لكن المدرعة كانت أثقل من أن تقلب.

انعدام الرؤية والتعرض للهجوم العنيف من قبل الشبان على المدرعات الذى مثل تهديداً مخيفاً بالموت جعل سائقيها، خاصة الذين فى المقدمة، يصابون بالهلع ويفقدون أعصابهم وهم يحاولون الفرار والتقهقر للخلف، فأخذوا يتحركون وهم فى حالة عمى فى جميع الاتجاهات بهستيريا فيصطدمون بكل ما يصادفهم، الأرصفة وسور الكوبرى الحديدى والمتاريس المنصوبة عند المدخل ويدهسون فى تخبطهم من يصادفهم من المتظاهرين الذين على الكوبرى ويتركونهم ما بين قتيل وجريح بإصابات بالغة، مما حول تلك المنطقة القريبة من مدخل الكوبرى إلى بركة دماء تتناثر فيها جثث الشهداء.

لم يكن هناك بد من الخوض فى الدم لعبور النصف الأول من الكوبرى، كان منظر الأجساد التى تعرضت للدهس مروعاً، ورائحة الدماء تثير الغثيان، لكننا رفعنا أجساد الشهداء ووضعناهم على الرصيف بينما تقدم الكثيرون لإسعاف الجرحى بقدر المستطاع.

تجمعت قوات الشرطة عند مؤخرة الكوبرى وأقامت تحصيناتها هناك فى محاولة أخيرة لمنعنا من الوصول إلى ميدان التحرير ليبدأ صدام الخروج بعد أن انتهينا من صدام الدخول بخسائر فادحة فى الأرواح.

ونحن فوق الكوبرى وقد احتللنا ثلاثة أرباعه حانت صلاة العصر، تبادل عدة أفراد رفع الأذان من مواقع مختلفة، اصطففنا بعرض الكوبرى وتيمم أغلب الناس استعداداً للصلاة، وما أن شرعنا فيها حتى تقدمت المدرعات المزودة بمدافع الماء وأغرقتنا بمياه المجارى، لم ينسحب فرد واحد بل زادت أعداد المصلين بانضمام الكثيرين لتأدية الصلاة تحت وابل الماء متحدين صفاقة الشرطة وتبجحهم، سجدنا فى المياه العطنة وهواء يناير البارد يتخلل ملابسنا المبللة التى تشبعت بالماء.

ما أن انتهينا من الصلاة حتى اندفعنا والغضب يشتعل كالحريق فى نفوسنا لاقتحام المتاريس وما خلفها من قوات، انهمرت علينا طلقات الرصاص المطاطى وخراطيش الرش كالسيل ثم اندفعت المدرعات ناحيتنا بسرعة ودخلت بين جموع المتظاهرين لتشتت شملهم، هذه المرة تعمدوا الاصطدام بالناس ودهسهم مما أسقط العشرات، لكن مسعاهم خاب ولم ينجحوا فى تفريق الحشود التى غطت الكوبرى وامتدت حتى الضفة الأخرى للجزيرة قرب دار الأوبرا.

من خلف المدرعات اصطفت مجموعات جديدة من الجنود وأخذت فى التقدم نحونا وهم يشرعون هراواتهم استعداداً للهجوم علينا، لكن الناس لم تنتظرهم هذه المرة بل بادروهم بهجوم هائل، فى البداية جرى أحد الشبان بأقصى سرعته ثم قذف بجسده فوق الجنود فأوقع عدداً منهم على الأرض، وفى لحظات تبعه ثلاثة آخرون أوقعوا معظم جنود الصف الأول، ثم اندفع عشرات الشبان فاصطدموا بالجنود صدمة هائلة وبدأوا فى ضربهم، كان معين الصبر قد نفد ولم يعد لدى أحد طاقة على تحمل وحشية الشرطة وتعاملها المهين لشعب تعداده عشرات الملايين ويمتلك

ميراثاً حضارياً يمتد لآلاف السنين من أجل رجل واحد، لا يستحق، وصل إلى الحكم بالصدفة بسبب حادثة قدرية ثم تحول إلى طاغية مصنف عالمياً ويحتل مكاناً مرموقاً فى قائمة طغاة العالم.

فى خلال دقائق معدودة انهار جنود الشرطة بعد تعرضهم للضرب المبرح، لكن.. وبرغم كل ما فى النفوس من غضب وثورة لم يُقتل جندىٌ واحدٌ منهم، فقط جردهم المتظاهرون من هراواتهم وأخذوها ليدافعوا بها عن أنفسهم وسلبوهم دروعهم وخوذهم ليستخدموها فى حماية أنفسهم.

أطلق الضباط الذين كانوا يقفون بمختلف رتبهم فى مؤخرة جنودهم الأعيرة النارية فى الهواء بشكل مكثف فى محاولة يائسة لتخويف المندفعين باتجاههم الذين كانت تكفى فيما مضى طلقة واحدة فى الهواء لإدخال الرعب فى قلوبهم وتفريقهم.

استسلمت المجموعة الأخيرة من الجنود برفع أيديهم لأعلى وحشود المتظاهرين تقترب منهم فلم يتعرض واحد منهم للأذى، بينما تناثر زملاؤهم الذين تعرضوا للضرب على الأجناب والتصق بعضهم بقاعدة تمثال قصر النيل بعد أن تورمت أقفيتهم وأصداغهم، لم ينتظر الضباط بعد انكسار جنودهم، وسرعان ما ركبوا سياراتهم وابتعدوا عن مدخل الكوبرى، وتفرقت العربات والمدرعات يميناً وشمالاً على شارع الكورنيش لينفتح ميدان التحرير أمام الآلاف الذين تدفقوا عليه كالسيل بعد صراع دام قرابة الثلاث ساعات.

***

بمجرد دخولى الميدان تبددت كل أحلامى، طوال الساعات التى قضيتها فى محاولة الوصول إليه وتفكيرى منحصر فى أنه الملاذ الآمن لحركة

الاعتصام، وأننا سنجلس فيه محاطين بقوات الشرطة التى لن تجرؤ على مهاجمتنا تحت سمع وبصر عدسات المحطات الإخبارية التى أعلم أن الحكومة الدكتاتورية تعمل لها ألف حساب، لكن تبين ومن اللحظة الأولى أننى كنت واهماً، كان الميدان مغطى بسحب كثيفة من الدخان الرمادى المسيل للدموع، والدماء فى كل مكان، وهناك عشرات الجثث ملقاة على الأرض، وأعداد كبيرة من الجرحى على الأرصفة والناس فى حالة يرثى لها، عدة عربات محترقة يتصاعد منها الدخان متناثرة فى الشارع الرئيسى، صوت طلقات الرصاص لا يتوقف، لم يكن هناك مجال للشك أن أسطح العمارات والمبانى المطلة على الميدان محتلة برجال من الأمن يطلقون بنادقهم ومدافعهم الرشاشة على المتظاهرين المسالمين، كان من الممكن رؤيتهم بوضوح على سطح مبنى الجامعة الأمريكية المنخفض وهم يطلقون علينا النار، حالة عارمة من الهرج والفوضى بدا معها أن إخواننا الذين وصلوا للميدان فى الصباح الباكر ليعتصموا فيه قد تعرضوا لمذبحة وأنهم دفعوا ثمن صمودهم غالياً، تدفق القادمون من معركة الكوبرى جاء فى اللحظة الحاسمة، وكان بمثابة إنقاذ، ربما ليس للمعتصمين فى الميدان فقط، بل للثورة نفسها، فتدفق تلك الحشود الضخمة الذين ملأوا ساحة الميدان وشوارعه فى دقائق قلب الموازين تماماً لصالح الثورة، ففى خلال لحظات بدأ الشبان فى التعامل مع قوات الأمن المعتدية بكافة الوسائل المتاحة، الرشق بالحجارة وزجاجات البنزين المشتعلة التى أضرمت النار فى عدد كبير من عربات الأمن والاشتباك مع تشكيلات الجنود الذين كانوا يطاردون ثوار الميدان بهراواتهم، انقض عليهم الشبان ومزقوا ملابسهم وجردوهم منها ومن عصيهم فهربوا

بكلاسينهم وفانلاتهم الداخلية ومازالت الخوذ على رؤوس بعضهم وقد تبعثرت تشكيلاتهم نحو قياداتهم المتمركزة فى شارع القصر العينى.

كنا نجرى من مكان لآخر فى أرجاء الميدان الواسع فى حركة كر وفر لا تتوقف، نتحصن بجدران المبانى لنبتعد عن الرصاص ونبحث عن نسمة هواء خالية من الدخان، ثم نعاود الجرى، فقد كان التوقف فى مكان ثابت لمدة طويلة يعنى الموت المؤكد، جرى بجانبى رجل لعدة أمتار ثم فوجئت به يميل علىّ ويجذبنى من ملابسى، لم يكن هناك فرصة للتوقف فى مكان مكشوف، استغربت هذا التصرف وخشيت أن يكون أحد المخبرين قد أمسك بى فى هذه اللحظة التى يتطاير فيها الرصاص من حولنا، طلقات المدافع الرشاشة كانت تصطدم بالأرض فى دفعات متلاحقة على مسافة مترين أو ثلاثة قبل أن تتطاير فى الهواء، اضطررت إلى التوقف لأرى ما الذى يريده وأنا أجهز قبضة يدى لأنهال عليه إذا اتضح إنه من رجال الأمن، لكننى وجدته يتباطأ وجسده يتثاقل قبل أن يتهاوى بين ذراعىّ والدماء تفور من رقبته وتغطى صدره، شاب فى الثلاثينيات، تحدثنا للحظات قبل أن نشرع فى الجرى.

– نفسى الراجل ده يمشى ومصر تنضف من الحرامية.

آخر جملة قالها وهو يرقب الميدان وينتظر اللحظة المناسبة للجرى، انحنيت عليه وهو ينازع وسجيته بمساعدة عدد من الرجال الذين توقفوا حولنا، ثم حملناه من عرض الشارع إلى الرصيف، شعرت بعدها بألم حارق فى سمانة رجلى، فحمدت الله أن الرصاصة التى تلقيتها ربما فى نفس اللحظة وأنا أجرى بجوار الشهيد قد جاءت سليمة.

كانت ساعة الغروب تقترب ونهار الشتاء البارد يوشك على نهايته،

وزرقة السماء تتلون بألوان الغروب الرائعة فوق الثوار وهم يخوضون حرباً استخدمت فيها كل خطط الأمن المعدة وفق دراسات علم النفس الاجتماعى لتفريق الجماهير، قنابل الدخان الحارقة للعيون والصدور، مدافع المياه الملوثة بمخلفات الصرف الصحى، إطلاق النار العشوائى الذى يثير الفزع ويؤدى لحالة من الهلع الجماعى تنتج من حدوث إصابات وسقوط قتلى مضرجين بالدماء تجعل الجميع يفرون بأرواحهم ويخلون مكان تجمعهم فى ثوان، لم يفر أحد ولم تحدث حالات فزع جماعى، صمد الثوار والرصاص يحصد الكثيرين منهم، تكون لدى الجميع اليقين أنها معركة الحياة أو الموت، إما هم وإما النظام الحاكم برئيسه ورجاله، لا يوجد حل وسط، الحرية والكرامة، أو الذل والهوان والفقر، برغم كل ما لقيناه من عنف وصل إلى حد القتل المتعمد بالدهس والرصاص كان لدينا الشعور بأن قوات الأمن تنهار وتفقد السيطرة، وأن معركتنا الأولى ستحقق النصر على الركن الرئيسى للدولة البوليسية التى أقامها الطاغية وجعل رجال الشرطة يتخلون عن عملهم الأصلى فى توفير الأمن وحماية المجتمع من اللصوص وحولهم إلى فتوات وبلطجية عملهم الرئيسى حماية نظام الحكم بقمع أفراد الشعب وتخويفهم.

لكن فجأة مع دخول الليل اشتدت حدة الضرب وعادت لترتفع حتى بلغت حد الجنون، قنابل الدخان التى أطلقت بشكل مكثف من جميع الجهات رسمت أقواساً رمادية كقبة هائلة الحجم فى سماء الميدان وصارت تتساقط كالمطر على رؤوس الناس بينما إطلاق الرصاص بجميع أنواعه يتتابع بصوته المرعب ويحصد فى المتجمعين بالميدان حتى ظن معظمهم أنهم سيتعرضون لحرب إبادة لن تبقى منهم أحداً، ثم هدأ كل شىء بغتة

وساد الهدوء، مرت دقائق من الصمت لم يدر معها أحد كنه ما يحدث، كان الجميع قد بلغوا حد الإعياء من كمية الدخان التى استنشقوها وجعلت عيونهم كالجمر يكاد ماؤها يجف، بينما أنوفهم تسيل بلا توقف واللعاب يغرق أفواههم وهم يتساقطون اختناقاً على الأرصفة وفى عرض الشارع مصابين بأزمات تنفس، أخذ الجميع يترقبون ما سيحدث فى وجل وتوقع البعض أن هناك مدداً قد وصل إلى قوات الأمن وأنهم يستعدون لهجوم جديد، لكن لحظة السعادة كان موعدها قد حل أخيراً بعد يوم طويل دام، رأوا عربات الأمن وهى تغادر الميدان على عجل والجنود يركضون خلفها ليتسلقوا سلمها الخلفى ويقفزون بداخلها، طوابير طويلة من عربات الجنود وسيارات نصف النقل أخذت تشق الشوارع المحيطة بالميدان آتية من أماكن تجمعها فى شارع القصر العينى والميادين الداخلية لوسط القاهرة لتذهب إلى حيث لا يعلم أحد، شيعهم الناس باللعنات والشتائم وقذفوهم بوابل من الحجارة وهم يهتفون بسقوط الرئيس ولا يكادون يصدقون أن قوات الأمن التى سلطها عليهم النظام قد سقطت بالفعل أمام ثورة الشعب وفرت بهذا الشكل المهين، ثم تضاعفت الفرحة بظهور طلائع الجيش وهى تتقدم بعرباتها ومدرعاتها فى قوافل صغيرة وتدخل الميدان وشارع الكورنيش ومنطقة وسط البلد، استقبلهم الناس بالهتافات المرحبة وأخذوا يصافحون الجنود والضباط ويحيونهم وهم مطمئنون تماماً.

هبت رياح الشتاء القادمة من صفحة النيل لتزيل سحب الدخان الثقيلة فيصفو الجو شيئاً فشيئاً ويعاود الناس تنفس الهواء النقى.

البعض من ضباط الشرطة سيئى الحظ وجدوا أنفسهم فجأة وسط الميدان

بلا قوات ولا سيارات وقد تعطلت أجهزة الاتصال اللاسلكية التى يحملونها بعد أن أغلقت غرف العمليات بقرار مشبوه ودون إصدار أى تعليمات مسبقة لهم بالانتقال أو التحرك، فى أى دولة أخرى وفى نفس هذه الظروف كان تخلى القيادة عن هؤلاء الضباط وتركهم فى الشارع بلا تأمين أو حماية فى مواجهة جماهير بلغت هذا الحد من الغضب يعنى إعدامهم على الفور بأيدى الثائرين، لكن طبيعة الشعب المصرى غير الدموية اكتفت بتهزيئهم بالصفعات والشلاليت وتمزيق ملابسهم الرسمية، رمز القهر والظلم، ثم تركهم يعودون سالمين إلى أولادهم وبيوتهم.. ما عدا رجلاً واحداً.

لعل وجوده فى وسط المدينة التى تعد منطقة نفوذه التى طالما شهدت صولاته فى التعامل مع المظاهرات جعله لا يقبل على كرامته المهنية الفرار مثل غيره، أو ربما أن حظه التعس جعله لا يتمكن من الانسحاب فى الوقت المناسب لسوء التقدير أو عمى البصيرة، لكنه ظل واقفاً قرب ميدان الشهيد يتابع انسحاب زملائه السريع وإخلاءهم أماكن تمركزهم بغيظ، كان قد وزع رجاله ومخبريه وأتباعهم من البلطجية والمجرمين وأطلقهم لتنفيذ تعليماته بالتعامل بأقصى درجات الشدة مع المتظاهرين وظل يتحرك كعادته ليتابع عملهم، لم يرض أن يظل واقفاً بجانب سيارته خلف التحصينات والجنود ليعطى الأوامر كما يفعل زملاؤه، الهيبة التى ظل يتمتع بها لسنوات وشعوره بالقوة، بالإضافة إلى طبنجته المعلقة بجرابها فى حزامه وجسده الفارع الغليظ القوام جعله يعتقد بأنه لا يمس ولا يمكن لإنسان أن يتجرأ على مهاجمته أو التعرض له، لديه قناعة مرضية بأنه محصن بشخصه لا برجاله ولا بوظيفته، برغم ما تمنحه تلك

الوظيفة من نفوذ يجعله يستطيع أن يتحكم بل ويخيف أى رجل فى الدولة بمن فيهم كبار المسئولين، منذ عدة سنوات أصبح بإمكانه أن يصدر أمراً بإعدام أى شخص وتصفيته جسدياً دون الوقوع تحت طائلة القانون ودون حتى أن يراجعه أحد فيما فعل فضلاً عن أن يحاسبه، تضخم نفوذ الجهاز فى السنوات العشر الأخيرة جعله هو وزملاءه ورؤساءه و مرؤوسيه فوق القانون لا يملك أحد فى الدولة أن يقترب من عملهم أو يحد من سلطتهم، بدأ هذا مع ظهور ابن الديكتاتور الأصغر فى الصورة وتدخله مع أتباعه فى شئون الحكم بإذن من الأب المتواطئ.

تحت هذا الإحساس بالعظمة الذى يصل إلى درجة الهوس المرضى، ابتعد عن سيارته السوداء وسار لمسافة طويلة بين عدد هائل من جنود وضباط الشرطة ومعاونيهم وأتباعهم، لم يسبق لهم التجمع فى قلب المدينة بهذه الكثافة، لابد لهؤلاء الكلاب أن يخرجوا من الميدان هذه الليلة وإلا فإن العواقب سوف تكون وخيمة، ستضيع البلد من أيدينا وتنقلب إلى فوضى، مالهم لا يتراجعون كما كانوا يفعلون دائماً، إن جميع الوسائل المجربة والتى أثبتت فاعليتها من قبل تفشل هذا اليوم وعلى مدى الثلاثة أيام الماضية أيضاً؟! أربعة أيام وهو فى الشارع ينام فى سيارته لساعة أو ساعتين، استخدم خبرة السنوات الطويلة فى التعامل مع المظاهرات والتجمعات المعادية للدولة دون جدوى، هذه المرة الأمر مختلف، لم يعد قاصراً على مجموعات الشبان الذين يعرفهم ويحتفظ لكل منهم بملف، إنهم موجودون جميعهم، رآهم بنفسه وقبض على عدد منهم، لكن المشكلة فى هؤلاء الآلاف الذين خرجوا معهم، لا يعرف منهم أحد؟ من أين أتوا؟ ولماذا خرجوا؟ الكلاب أرهقونا إلى آخر مدى واستنفدوا

قوتنا تماماً، سوف تضيع البلد بسببهم! لماذا تسرع عربات العساكر هكذا؟ إنهم يتحركون فى قوافل! اللعنة إنهم ينسحبون، الجبناء، من الـ... ابن الـ... الذى أصدر هذا الأمر؟ لا يمكن أن يكون السيد الوزير، سيارات الضباط تتحرك هى الأخرى وتترك الميدان ومعها المدرعات، إنها حركة تمرد ولا شك؟!

لاحظ أن جهاز اللاسلكى لم يعد يعمل، جميع الموجات مغلقة، أين ذهبت غرف العمليات؟ من الذى أغلقها؟ التليفونات المحمولة لا تعمل هى الأخرى، لقد شارك هو نفسه فى قطع شبكاتها، اقترح على القيادة هذه الفكرة كأحد خطط منع التواصل بين الشبان واستجابوا له.

أسرع بالمشى فى اتجاه سيارته وهو يشعر بإجهاد وصداع بسبب استنشاقه للغاز المسيل للدموع، ولما تعرض له من ضغط عصبى فى التعامل مع الثوار الذين لم يعد هناك مجال للشك فى أنهم انتصروا على أجهزة الأمن هذه المرة، ولما ناله من شتائم رؤسائه وهو الذى تعود على الثناء والإشادة بكفاءته فى التنكيل بالشباب الثائرين والخارجين على النظام الحاكم على مدى سنوات، عدم النوم واستنشاق الدخان أثقلا خطواته وهو يحاول أن يشق طريقه وسط حركة الميدان الصاخبة وتدافع الناس وصياحهم، اقترب من النقطة الأمنية التى توجد بها سيارته، لمح تحركهم، النقطة بجميع عرباتها ومدرعاتها وسيارات ضباطها تتحرك لتخلى الميدان، توقف وزفر بغيظ وهو يسبهم ويلعنهم، وضع جهاز اللاسلكى فى جيب البالطو ليخفيه حتى لا يفضح هويته، الناس تعلن كراهيتها لضباط الشرطة علناً فى هذه اللحظة وترفض التعامل معهم ناهيك عن مساعدة أحدهم، لابد له من مغادرة الميدان بأسرع ما يمكنه

ليعود إلى مكتبه، ليس هذا وقت العودة إلى البيت وهناك عمل ينتظره، فى المكتب يستطيع أن يغتسل ويغير ملابسه ويتناول وجبة طعام ثم ينام لبضع ساعات يرتاح فيها من الهم الذى عاناه طوال الأيام الماضية، بعدها سوف يبدءون فى التعامل مع الأوضاع المستجدة وفق خطط الطوارئ تلك التى لم يتصور واحد منهم أنهم سيلجأون إليها فى يوم من الأيام، لا توجد سيارات أجرة ولا أى وسيلة مواصلات أخرى، المشوار إلى المكتب بعيد، ليس هناك بد من المشى إلى ميدان رمسيس والركوب من هناك.

ملابسه المدنية أشعرته بالأمان وهو يرى الضباط الذين يرتدون الزى الرسمى يتعرضون للضرب، لم يبال بهم ومضى كأن الأمر لا يعنيه... لكن أحد الشبان ممن تعاملوا معه من قبل لمحه فلكز زميله وأشار ناحيته.

- يااه.. ابن الحرام ده لسه هنا!

- أنا بينى وبينه ثأر، لا يمكن أن أتركه.

- وأنا كمان.

فى ثوان تجمع عدد من الشبان وجروا ناحيته، شعر بهم فمد يده إلى طبنجته، لكنهم انقضوا عليه كالصقور قبل أن يتمكن من سحبها.

تذكر الشاب الأول وهو يقبض على يده ليشل حركتها ذكرياته الأليمة مع هذا الرجل تحديداً دون غيره من الضباط الذين احتك بهم خلال السنوات الماضية.

كان يأتى إلى المظاهرة بسيارته الرسمية السوداء وينزل منها بملابسه المدنية، يصطف خلفه خدمه من رجال الأمن السرى، أحدهم يحمل علبة

السجائر والولاعة، وآخر يحمل جهاز اللاسلكى، والثالث أجهزة الهاتف المحمول، والرابع مستعد لتلبية أى أمر يصدره، يقف منتصب القامة كقائد يخوض حرباً مقدسة ضد أبناء وطنه الذين ضاقوا بالرئيس الغثيث ودولته البوليسية التى تسرق مستقبلهم وأحلامهم وخرجوا فى سلام ليعبروا عن رفضهم لسياسته ويطالبون بإسقاطه لتعود العدالة والكرامة للوطن، قد تمر عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة قبل أن يأمر بالهجوم الكاسح على المظاهرة بالجنود أولاً ثم بالمخبرين وأخيراً بالمجرمين والبلطجية، مع تزايد حدة التظاهرات وتخلى الرئيس وابنه المنحرف عن قيم الشرف وتقاليد المجتمع، كانوا يضربون الفتيات والنساء ثم يمزقون ملابسهن فى الشارع ويعرون أجسادهن علناً كأنهم يعرون جسد الوطن وينتهكونه على الملأ، هذا الرجل كان يتفنن فى إرهاب شباب المتظاهرين ومحاصرتهم وضربهم بقسوة ثم يفض المظاهرة فى زمن قياسى مما جعله يقفز سلم الترقيات بسرعة ليصل إلى منصبه المرموق، برغم أن الشباب فى المقابل لم يستسلموا أبداً ولم يتوقفوا عن تنظيم المظاهرات المطالبة بسقوط الرئيس، كان الأمر أشبه بمباراة بين طرفين لابد أن تنتهى فى يوم ما بالقضاء على أحدهما، الشبان أدركوا أنهم يمثلون الشعب الباقى على أرض الوطن والذى لابد أن ينتصر فى النهاية مهما بلغت مشقة المشوار، يتوالى القبض على الشبان والشابات أثناء المظاهرة، يمشى عدة خطوات ليقف بجوار عربة الترحيلات ويتسلمهم بنفسه من المخبرين.

– إنت بتشتغل إيه يا له؟

– مهندس.

– طيب لما انت مهندس داير ليه تتشرمط فى الشوارع؟!
رد الشاب بنفس نبرة التهكم.
– حتى لا نترك البلد لأمثالك يتحكمون فيها.
– ... أمك، غور اركب يا ابن الـ...
– أمك إنت الوسخة.
تنهال الصفعة من يد المخبر الضخمة على الوجه أو القفا.
– كلم الباشا كويس يا له.
– اخرس يا كلب، ستدفعون الثمن فى يوم من الأيام، أنتم ورئيسكم، وشرفك يا باشا ستدفع ثمن هذه الكلمة فى يوم قريب.
قالها الشاب بقوة ويقين كحقيقة مؤكدة لا تقبل الشك ودون أن يهتز أو ترتعش أطرافه كحال المقبوض عليهم، لم يصل إلى تلك الحالة التى يعرف الضباط بخبرتهم أن المتهم يصبح بعدها تحت السيطرة.
ابتسم الباشا ابتسامة صفراء وأشار بيده إلى سلم العربة بقرف.
– غور.. اركب.
فى غرف الحجز بمقر المباحث كان هو أكثر الضباط خسة وبذاءة بالإضافة إلى ساديته.....
جميع الضباط الذين تخلفوا فى الميدان تعامل الثوار معهم بصفتهم الوظيفية دون أى تدخل للعوامل الشخصية، أما هو فكان الأمر مختلفاً وأخذ طابع الانتقام للكرامة ورد الاعتبار للذات، لم يقدم فى يوم ما يدعو واحداً من الشبان للتسامح معه، تعامل معهم دوماً على أنهم أعداء، وتجاوز حدود العام إلى الخاص وخلق من كل شاب عرفه عدواً له ثأر شخصى معه، فى لحظات كان هناك ما يزيد على العشرين شاباً ينتقمون لأنفسهم ولكرامتهم التى أهدرها... قال أحد الرجال الذين استوقفهم الموقف لغرابته عما يحدث فى بقية الميدان وحاولوا التدخل.

- يكفى هذا، دعوه من أجل أولاده، فقد أشرف على الموت.

صاح أكثر من شاب وهم مستمرون.

- وماذا عن أولاد الناس الذين عذبهم وهتك أعراضهم وقتلهم؟ إنه قاتل ومجرم لن نتركه حتى يكون عبرة لأمثاله من الخونة.

# 4

شاطئ البحر يبدو ساحراً، شتاء شرم الشيخ هو الأفضل ليس فى مصر وحدها بل على مستوى العالم، منذ ما يقرب من العشر سنوات اعتاد قضاء الشتاء هنا أو تقريباً نصف العام، لا يرحل إلا حين تشتد حرارة الصيف، يغادر إلى الشاطئ الآخر على بحر الإسكندرية، أما العاصمة فلم يعد يطيق الإقامة فيها.

بعد أن تجاوز السبعين بعدة أعوام أصابه الملل وقرر أن يتقاعد على طريقته، يعيش حياة من بلغوا سن المعاش وفى نفس الوقت يحتفظ بكل سلطات وظيفته، لديه يقين أنه أدى ما عليه وضحى بحياته من أجل الوطن، عاش حياة من العمل المتواصل فى سبيل بلده، من حقه الآن أن يرتاح وهو يمارس مهام وظيفته، فهو فى نهاية الأمر بشر، أليس كذلك؟ لم يكن لديه هذا الولع بالبحر من قبل، بل نما فى نفسه مع التقدم فى العمر حتى أصبح لا يطيق الابتعاد عن شاطئه صيفاً وشتاءً، فهو ليس من أبناء السواحل الذين يجرى حب البحر فى دمائهم، كما أنه قضى معظم فترات شبابه ورجولته وهو يعمل فى الصحراء حيث تقع معسكرات الجيش، أما الريف حيث نشأ فى أسرة متواضعة تعيش فى قلب الدلتا المترع بالحقول الخضراء الخصبة فينفر منه بعكس كل أبناء الريف الذين يظلون دائماً يحملون الحنين إلى قراهم ويزورونها كلما سنحت لهم الفرصة مهما كان حجم مشاغلهم وضخامة وظائفهم والمدن التى يعيشون فيها، ربما بسبب نشأته الفقيرة تلك التى لا يحب لأحد أن يذكره بها يكره الزرع والزراعة والريف بحقوله وبساتينه وغيطانه وقراه وكفوره

وفلاحيه أيضاً بمن فيهم أقاربه، ليس لهذا سبب معلوم.. حتى الآن على الأقل، ربما يكشف التاريخ هذا السر يوماً ما، أغلب الظن أن السبب لا يعود فقط لكونه براوياً بطبيعته كما يقولون عنه فى قريته التى لا يذكره أحد من أهلها بخير، فمنذ أن استقر فى القاهرة لم يزر قريته إلا فى مناسبات عائلية محدودة أخذت تتباعد مع الأيام بصعوده فى المناصب العسكرية حتى انقطعت نهائياً بوصوله إلى رتبة اللواء.

منذ بداية عملة كضابط اعتنق مبدأ الحسنة تخص والسيئة تعم، الشائع فى العسكرية، واتخذ منه أسلوباً فى معاملة أى فرد خدم تحت قيادته، لاقى هوى فى نفسه التى لا تحب الانشغال بالتفصيلات الدقيقة لأى مشكلة والبحث فى أسبابها ومعرفة المذنب أو المخطئ الذى تسبب فى حدوث التقصير من البرىء الذى لا ذنب له، يعاقب الجميع بحسم وقسوة وبلا أى رغبة فى تحرى العدل، لا يقبل عذراً من أحد كائناً من كان، ولا يشغل باله بسماع هذا العذر من الأصل، يصدر الأمر الفورى بالعقاب بدءاً من الضابط المسئول حتى العسكرى المجند، فتعاقب سرية أو كتيبة كاملة بضباطها وجنودها لهفوة ارتكبها فرد واحد فيها، هذه الصرامة المتشوقة أبداً للعقاب دون المكافأة كانت سبباً فى ترقيه بسرعة لافتة للنظر، فأينما وجد يحل الانضباط والجدية ويرتفع مستوى الموقع وكفاءته إلى أعلى حد، وصل إلى هذا المستوى المتميز بالقهر وعلى حساب المشاعر الإنسانية وعلاقات الزمالة، أما الصداقة فلم يكن لها مكان من الأصل فى حساباته الجامدة.

***

فى يوم المنصة الذى وقعت فيه حادثة اغتيال سلفه، تشاءم معظم إن لم

يكن جميع الذين خدموا معه وخبروا شخصيته وطباعه وزاملوه سواء كرؤساء له أو كمرءوسين عندما عرفوا بنجاته ووصوله للرئاسة، وضرب بعضهم كفاً بكف مذهولاً من تصاريف الزمن وحكمة القدر الغريبة التى وقفت بجانب رجل لا قلب له ولا مشاعر وارتقت به إلى حكم البلد، ده آخر واحد ينفع يحكم مصر، قال رجل منهم وهو جالس فى بيته على المعاش، يا خبر أسود.. سنرى أياماً سوداء، مصر راحت فى داهية خلاص.. عليه العوض، كان بعد اختياره لمنصب نائب الرئيس وتمتعه بقدر كبير من السلطة قد تتبع زملاءه الذين تعاملوا معه بشكل شخصى، لم ينس منهم واحداً، من قال له كلمة فى يوم من الأيام، من اختلف معه، ومن كان يشعر بعدم الارتياح تجاهه، أو من كان يكرهه بلا سبب، وبدأ فى تعقبهم وتصفية حساباته معهم، فالذين مازالوا ضباطاً فى الجيش عمل على إحالتهم للتقاعد، أما الذين أنهوا خدمتهم وحصلوا على وظائف مدنية فسعى إلى إخراجهم منها أيضاً ليجلسوا فى بيوتهم أو يتجهوا إلى الأعمال التجارية البعيدة عن العمل الحكومى، فى ذلك الوقت كانوا يعتقدون أن منصب نائب الرئيس هو آخر ما يمكن أن يصل إليه، وأن المنصب لن يدوم له سوى سنوات معدودة، فالرئيس لم يتقدم به العمر بعد وهو بصحة جيدة، كما أنهم يعلمون أن الرئيس يفضل تغيير رجاله ومساعديه كل فترة لتجديد شباب حكمه ولا يبقى على أحد لفترة طويلة، لكن حادث المنصة الذى باغت الجميع قلب كل الموازين وأطاح بجميع الحسابات، وفاجأ الناس بما لم يخطر على بالهم وتركهم فى حيرة.

قال الابن الشاب لأبيه مستغرباً رد فعله.

– أليس هو أحد القادة الذين حققوا النصر فى الحرب؟!

رد الأب بأسى.

– ما كلنا حارينا فى أكتوبر وشاركنا فى تحقيق النصر، نعم لا أحد ينكر كفاءته العسكرية لكن هذه الكفاءة تخلو من الجانب الإنسانى، فهو حقود لا يرحم أحداً، الحياة العسكرية بطبيعتها الصارمة يمكن أن تتحمل رجل كهذا، بل إن هذه الطبيعة الجامدة كانت من أسباب نجاحه، برغم أن جميع من عملوا معه من العسكريين عانوا من تسلطه واستعداده لأن يدوس على أى إنسان فى سبيل أن يصل إلى هدفه ويحقق أطماعه فى القيادة، رجل كهذا عندما يحكم البلد ويتعامل مع الحياة المدنية سيحول حياة الناس إلى جحيم ولن يطيقه أحد، كما أن عقليته غير سياسية، لو بينه وبين الناس حبال لا شعرة لقطعها.

ثم أضاف الأب بِهَم من يفهم بواطن الأمور.

– إنه من أغبى الناس الذين تعاملت معهم فى حياتى من الناحية الإنسانية، لا يتفاهم ولا عنده استعداد ليفهم أحداً، إنه يعامل الناس كأنهم آلات أو ماكينات لا بشر من لحم ودم، فى السنوات التى عملت فيها معه لم أره يضحك أبداً، وحتى عندما كان يداعب أحداً فإنه يفعل ذلك بسماجة وثقل دم!!!

الصفة الأخرى التى ساعدت على بروز اسمه وترقيه لمناصب القيادة، وهى لا تقل أهمية عن الأولى فقدرته غير العادية على العمل المتواصل لساعات كثيرة بلا أدنى شعور بالتعب، صفة ربانية منحها له الخالق جعلته يتميز عن جميع الذين عمل معهم، برغم أنهم جميعاً يتمتعون بلياقة بدنية عالية بحكم عملهم، لكنه كان يتفوق عليهم وبفارق كبير يجعلهم لا يستطيعون مجاراة طاقته الهائلة فى العمل طوال النهار وحتى

ساعات الليل المتأخرة، ينامون بعد أن يهدهم التعب ويستيقظون ليجدوه لايزال فى مكتبه أو فى أى مكان بالموقع يتابع العمل، حتى إنهم لم يكونوا يعرفون متى ينام ومتى يستيقظ ومتى يأكل! وبالإضافة إلى صحته الخرتيتية فهو بلا مزاج، لا يشرب الشاى أو القهوة ولا يدخن، يحتسى الينسون والنعناع فقط ويمارس الرياضة بانتظام يومياً ليحافظ على لياقته الجسمانية.

***

عندما أسس جمال عبد الناصر الجمهورية الرئاسية بعد انقلابه الثورى على نظام الحكم الملكى أراد أن يجمع كل السلطات فى يده ليستطيع إقامة نهضة صناعية كبرى تحقق الرخاء لمصر وأن ينفذ مشاريعه دون أن يعترضه عائق سياسى يناقش قراراته ويحد من قدرته على العمل بحرية لتحقيق تلك النهضة الثورية فى المجتمع، رأى كشاب متحمس فى الرابعة والثلاثين من عمره أن المؤسسات السياسية ستعطله وتضيع الكثير من الوقت فى الجدل، وربما تحول بينه وبين طموحه فى إصلاح أحوال البلد، فاندفع دون تروٍ نحو ما يعتقده إصلاحاً ليؤسس الديكتاتورية الرئاسية، فلغى الأحزاب السياسية وحجم البرلمان واقتطع الكثير من صلاحياته وحول مجلس الوزراء من مجلس منتخب عن طريق صناديق الانتخابات إلى سكرتارية للرئيس يتم اختيار أعضائه بواسطة الرئيس شخصياً، ينفذون تعليماته دون نقاش وينتظرون توجيهاته قبل أن يتخذوا أى قرار، سار على هذا الطريق المفروش بالنوايا الحسنة، فأقام ربما دون أن يدرى دولة بوليسية تعتمد على الحاكم الفرد الذى يمتلك جميع الصلاحيات ولا يمكن الاعتراض على ما يتخذه من قرارات ولا

تستطيع أى جهة فى الدولة أن تحاسبه أو تراجعه فضلاً عن أن تحاكمه أو تعزله، فالدستور الذى صنع تحت إشرافه جعل منصب الرئيس محصناً لا يطال.

بالطبع لم يفرط السادات فى صلاحياته كرئيس عندما تولى المنصب بل استمرأ الاستبداد وزاد تلك الصلاحيات ببعض التعديلات الطفيفة فى الدستور، لكنه قام بمحاولات لتحسين صورة الحكم وإضفاء بعض الديمقراطية الشكلية عليه، فأعاد الأحزاب السياسية ونادى بسيادة القانون وهدم بعض المعتقلات، لكن مؤسسة الرئاسة ظلت على حالها تملك وتحكم بلا منازع، حتى جاء هذا الرجل فورثها بكل سلطاتها وصلاحياتها فجعلها على رقاب الشعب.

على عكس سلفيه الذين جلسوا من قبله على كرسى الرئاسة لم يكن يمتلك كاريزما القيادة ويفتقد إلى الحضور والقدرة على التأثير الجماهيرى، فى فترة البدايات ارتكب الكثير من الغلطات المضحكة أمام عدسات التليفزيون وعلى الهواء مباشرة، بدا على الشاشة عاجزاً عن التواصل مع الناس، يطجن فى الكلام، يعلق على ما يراه بتعليقات سمجة، بطىء الفهم وهو يستمع إلى شروح المختصين حول مشروع ما، كافتتاح مصنع طاقته نحو ألفى عامل أو استصلاح قطعة أرض أو بناء مستشفى أو حتى كوبرى، وغيرها من المشاريع الساذجة التى تتبناها الدولة لتوهم المواطنين بأنها تعمل، يسأل أسئلة لا علاقة لها بموضوع الحديث، ويستفسر عن نقاط تم شرحها تفصيلياً منذ دقائق، لكن بريق المنصب والهالة المبهرة للعيون التى يصنعها حول صاحبه جعلته ينجح إلى حد ما فى الانتقال من مرحلة الحبو، كممثل ردىء يبذل جهداً فى

التعلم، إلى مرحلة استطاع فى نهايتها أن يؤدى بالكاد دور الرئيس؟!
فى الفترة التى تولى فيها منصب النائب أشبعه الناس سخرية دوناً عن جميع المسئولين فى الدولة، فمن المؤكد أن غالبية أفراد الشعب لم يشعروا نحوه بالارتياح أو الثقة فى تلك الفترة مما جعلهم يشنعون عليه كعادة أهل مصر القديمة فى التريقة على رجال السلطة، فهموا أن الرئيس أتى به ليشغل المنصب كواجهة للديكور الديمقراطى وأنه فى حقيقة الأمر لا يفعل شيئاً.. أو هكذا اعتقدوا واعتقد الرئيس الذى قال عن نفسه إنه صاحب القرار الوحيد فى مصر.
بعكس مظهره الذى يوحى بالبلادة وبأنه رجل لا يعى ما يدور حوله ولا يفهم من أمور السياسة شيئاً، كان يعمل فى الخفاء على تدعيم نفوذه وترسيخ وجوده فى السلطة مستغلاً مشاركته فى تحقيق النصر فى حرب أكتوبر ومكانته لدى المؤسسة العسكرية كأحد قادتها الكبار، فلم يكن ليترك فرصة هبطت عليه من السماء ولا ليدعها تفلت من يديه، وهو ما أتى بثماره بالفعل عندما فكر الرئيس فى عامه الأخير أن يعزله عن منصب النائب، بعدما أحس بتحركاته الخفية من وراء ظهره وسعيه لمد نفوذه إلى مناطق القوة بالدولة خاصة الجيش، وأراد إسناد نيابة الرئاسة لرجل مدنى أسوة بدول الغرب التى يحب أن يقلدها ولو من الظاهر، لكنه شعر بحالة من عدم الرضا تسود قيادة الجيش لهذا القرار فعزف عنه مؤقتاً وأجله حتى يحين الوقت المناسب الذى لم يقدر له أن يأتى أبداً.
موظفو الرئاسة كانوا أول من تلقى صدمة التعامل معه، المقارنة مع الرئيسين السابقين كانت مفجعة بالنسبة لهم، كل منهما كان يمتلك جانباً إنسانياً ملحوظاً برغم اختلاف طباعهما، أما هذا التجهم والغلظة

والمعاملة العسكرية الخشنة التى لا تعرف سوى العقاب وإنزال الجزاءات وسيلة لإدارة العمل فتسببت فى تجرعهم الإهانات واستيائهم الذى لم يستطيعوا إخفاءه عن ذويهم وأقاربهم وأصدقائهم وهم يترحمون على الرئيسين السابقين وأيامهما، لم يشعروا نحوه بالولاء ولا هو حرص فى معاملته لهم على ذلك، فالجانب الإنسانى غائب.

بوغت الصولات القدامى وجناينية حدائق القصور الرئاسية بأمر صارم يجبرهم على الاختفاء جرياً والتوارى خلف أى شجرة أو أجمة زرع إذا لمحوه فى الحديقة من بعيد، وعلى الجلوس الفورى فى أماكنهم ووجوههم فى الأرض إذا أحسوا بوجوده قريبهم فجأة، على مدى ما يقرب من ثلاثين سنة ظلوا يؤدون عملهم فى الحدائق أثناء وجود الرئيس، فقط يتوقفون احتراماً إذا مر بالقرب منهم، السادات المحب للزرع والخضرة والطبيعة عموماً كان ينزل ليتمشى فى أى وقت فيجدونه على رءوسهم فجأة، يمشى وهو مستغرق فى التفكير صامتاً لكنه فى بعض الأحيان كان يقف ليتكلم مع أحدهم، يناديه باسمه فذاكرته الحديدية لا تنسى أحداً، يسأله عن أحواله وكيف يعيش وإذا كان راتبه يكفيه أم لا؟ يسأل عن أسعار السلع الغذائية وبكم يشترون كل منها؟ ويهتم بصفة خاصة بالسؤال عن أولاده وأحفاده وإن كانوا يتعلمون فى المدارس، يدقق فى التفاصيل ليعرف كيف يعيش البسطاء من الشعب، يستمع بانتباه وهو يهز رأسه، ثم يمضى ليكمل تمشيته، وفى كثير من الأحيان كانوا يتسلمون عند انتهاء اليوم وجبات طعام من مطبخ الرئيس مجهزة فى علب ليحملوها إلى أولادهم.

الاحتقار أحد سمات التعامل مع الرجال مهما بلغت القيمة أو المكانة،

بطبيعة الحال الدوائر المحيطة به تتشكل من رجال النخبة وصفوة المجتمع، هؤلاء الذين يسمح لهم بمقابلته أو بالجلوس فى حضرته وبالكلام معه، مجرد محاولة النصح أو لفت نظره إلى مشكلة و لو حتى على سبيل الاستغاثة تعد تجرؤاً ووقاحة تقابل بالتنكيل الفورى والتهزىء العلنى.

– لا أريد أن أدخل التاريخ أو الجغرافيا..

رد ساخراً وقد عبس وجهه، ثم أكمل.

– أنا فى غنى عن كلامكم الفارغ ونصائحكم، وفروها لأنفسكم!!

جاء هذا الرد الغاضب على صورة زعيق مع إشارة تهديد بأصبع اليد أثناء أحد الاجتماعات التى يلتقى فيها مع الكتاب والمثقفين لأحد الكتاب السياسيين المخضرمين حاول أن يتلطف قدر ما يستطيع وهو يلقى كلمة أراد أن يلفت فيها النظر إلى الأوضاع السياسية المتردية التى وصل إليها حال البلد، فبدأ كلامه بأن سيادتك من الممكن أن تدخل التاريخ إذا أجريت بعض الإصلاحات الديمقرا....، هب فيه بغيظ قبل أن يكمل الكلمة، فسكت الرجل محرجاً وجلس وسط نظرات زملائه المشفقة، وظن أن الأمر انتهى عند هذا الحد، لكنه فوجئ وهو خارج بضباط الحرس يلتفون حوله ويسمعونه من قارص الكلام ما نال من كرامته قبل أن يدفعوه بغلظة نحو الباب ويطردوه بشكل مهين، ثم صدم بعد ذلك باعتذار معظم الصحف التى يكتب فيها وبعضها عربية عن نشر مقالاته.

***

لم تكد تمضى أيام على جلوسه على عرش الرئاسة حتى بدأت النكت تطلق عليه فى أنحاء مصر، التقط الناس بحاستهم التى لا تخطئ فى

تقييم حكامهم سلبيات شخصيته، وراحوا يصفونه بالغباء والحمق والسماجة فى نكاتهم، ويأنه أوقف حال البلد وعطل مصالحها منذ مجيئه، لكنه مضى فى طريقه لا يعبأ بهم ولا بما يقولونه، يضيق عليهم الخناق ويكتم أنفاسهم حتى أفقدهم للمرة الأولى فى التاريخ قدرتهم على السخرية وإطلاق النكات بعد أن أوصلهم إلى حال من الهم والغم لم يعد للمزاح والهزل مكان فيها، حتى الضحك الذى يعقب النكات لم يعد هو الأخر يسرى عن النفس ويذهب بهمومها.

مع مرور السنوات تبين الناس أن المسألة قلبت للجد وتجاوزت السخرية بمراحل، وأنها ليست فترة عارضة ستمر فى حياتهم لتعود الأوضاع بعدها إلى طبيعتها، كانت الأزمة تشتد وتترسخ جذورها فى المجتمع، وبدا زمن آخر يطل بوجهه القبيح عليهم، زمن لم تشهد له مصر مثيلاً منذ عهود، بدل الطباع وغير الأخلاق وجار على الجميع وظلمهم، وصل بهم إلى حالة من العبوس الدائم سرت معها روح من العدوانية والشراسة غريبة عن طبيعة الشعب المحب للحياة.. أو الذى كان محباً لها قبل أن يأتى زمنه، ولم تلبث مع ازدياد القمع وانتشار الفقر الذى ابتلع معظم الطبقة الوسطى ونزل بها إلى حالة العوز، وهبط بجميع طبقات المجتمع إلى أسفل درجة أو درجتين، أن انتشرت جرائم لا عهد للمجتمع بها من قبل، تخرج عن الطبيعى والمألوف فى السلوك البشرى إلى أبعد حدود الشذوذ، حتى لم يعد الناس يستغربون وهم يطالعون فى الصحف أخبار جرائم وحشية أصبحت من كثرة تكرارها عادية عن نهب وخطف واغتصاب وأبناء يقتلون آباءهم وأمهاتهم والأغرب والأكثر شذوذاً عن آباء وأمهات يقتلون أولادهم وبناتهم؟!!

السير على طريق الأيام السوداء أحدث أثره فى تغيير سلوك الناس وعاداتهم وتقاليدهم المتوارثة، اختفى المرح وتوارت سماحة النفس التى اشتهر بها المصريون، وأصبح التهذيب عيباً ونقيصة تؤدى لاتهام صاحبها بالخيبة والسذاجة، لتسود السوقية ولغة القاع البذيئة بما فيها من إيحاءات وإشارات وألفاظ كانت قاصرة فيما مضى على الطبقات السفلى وفيما بينهم لا يجرءون على استخدامها علناً مع عامة الناس، وتدخل قاموس الحياة اليومية وتهيمن عليها، فأى رجل ظهر الشيب فى رأسه حتى لو كان عالماً أو طبيباً أو مهندساً أو قاضياً أو أستاذاً جامعياً أو موظفاً ينال لقب حاج الذى يمثل أعلى درجات الاحترام عند الطبقة الدنيا غير المتعلمة، ويعد مهيناً بالنسبة للطبقات الأعلى وللمتعلمين عموماً، ولا يستطيع دفع هذا اللقب الشرفى عن نفسه مهما حاول، فتيار الثقافة الصاعد من أسفل جارف ويجتاح ما يقف فى طريقه، ولم يلبث أن هيمن على حركة الحياة، حتى إن أكثر الناس احتراماً أصبح على علم بمفردات قاع المجتمع، وربما تعمد أن يظهر نفسه بمظهر الخبير بفنون الصياعة ولغتها فى تعاملاته مع الآخرين، يرتدى ثوب الذئب مرغماً حتى لا تأكله ذئاب القاع، وكرد فعل للدفاع عن النفس ضد النصب والاحتيال والخداع والكذب التى أصبحت صفات أساسية لمجتمع بات أفراده يكنون الكراهية لبعضهم البعض ويتنافسون على فتات الرزق فى زمنه الشحيح.

على الجملة كان وصوله للحكم غلطة من غلطات الدهر وسيئة من سيئات الزمن ابتلى بها الله مصر وشعبها وامتحنهم به امتحاناً عسيراً، لم ينجح فيه إلا من صبر وقبض بشق النفس على جمر الاستقامة والأخلاق.

# 5

السياسة أسرار لابد أن تدبر فى الخفاء ولا تذاع على الناس، من الأفضل أن يفاجئوا بالأمر الواقع بدلاً من أن يصدعوا دماغك بمناقشات وجدل لا يجدى ولا ينفع، الحقيقة سر يجب أن تخفيه بألف كذبة كما قال تشرشل ذات يوم، لكى تحكم شعباً كهذا لابد أن تشوش عليه حتى لا يعرف أوله من آخره، وتشغله على الدوام بحوادث وأخبار لا يعرف صدقها من كذبها ليتوه فى دوامتها، لا تدع له الفرصة ليلتقط أنفاسه ويهتم بشئون الدولة ومشاكل السياسة والحكم التى يجب أن يبقى بعيداً عنها ولا يتدخل فيها، لابد أن يلهث خلف لقمة العيش وينشغل بها ليصبح همه الأساسى فى الحياة أن يأكل ويشرب وينام آخر الليل، ولا يجد وقتاً أو عقلاً ليفكر فيما عدا ذلك.

منذ بداية حياتى وأنا محظوظ، سارت معى الدنيا بسلاسة والنجاح كان حليفى دائماً، كل ما تمنيته حصلت على ما هو أفضل منه حتى وصلت إلى القمة، لم يساعدنى أحد ولا يستطيع أى مخلوق أن يدعى أنه صاحب فضل علىّ، حققت ما حققته بفضل عملى ومجهودى وتدبيرى، لكن حظى الحسن كان يدفعنى دائماً للأمام لا أستطيع أن أنكر.. لكنه حظى أنا على أية حال وليس حظ غيرى، لم أعان من مشاكل فى حياتى ولم أتعرض لأزمات من أى نوع، حتى فى أوقات الحروب كنت أؤدى عملى كمقاتل بكفاءة كما أفعل فى الأيام العادية وبشكل روتينى، فطالما أننى لا أتحمل مسئولية القرار ولن تلقى تبعات النتائج على كتفىّ لا يهمنى، لم أعرف المرض أبداً ولا رقدت فى سرير، قضيت أيامى سعيداً

مستمتعاً بحياتى متفوقاً على جميع من عرفت وتخطيتهم واحداً بعد الآخر، فى السياسة المسألة أصعب من العسكرية لكن لم يقف شىء فى طريقى إلى الكرسى، أكلتهم جميعاً هؤلاء الذين حاولوا مزاحمتى، أما الذين أرادوا وضع العثرات فى طريقى فقد عرفت كيف أنتقم منهم.

لا أحد فى هذه الدولة يستطيع التصرف بمفرده حتى فى أتفه الأمور، لابد أن أتابع بنفسى كل شىء وأصدر الأوامر حتى يعملوا، لو رفعت يدى وتركتهم ضاعت البلد، لا أحد يعلم حجم الضغوط والمشاكل التى أتعامل معها يومياً وبشكل متواصل لا ينقطع، الحلول صعبة وفى كثير من الأحيان أعجز عن الاختيار والتوصل إلى الحل السليم، أحتار وأقف لأفكر طويلاً قبل أن أتخذ القرار الصحيح، أنزل وأتابع على الطبيعة وأسأل المختصين وأدقق فى التفاصيل لكننى فى نهاية الأمر لا أفهم شيئاً، أطلب التقارير وملخصات الدراسات لأطلع عليها وأستمع للخبراء من كل صنف ولون فأجدهم يختلفون، بعضهم يتجه إلى الشرق والآخر إلى الغرب، لابد أن توجد مزايا وعيوب فى كل فكرة وكل مشروع، وإذا كانوا هم لا يستطيعون الاتفاق وهم أهل الاختصاص، فماذا أفعل أنا وكيف أتخذ القرار ومشاكل البلد كلها فوق رأسى؟ شىء مقرف يضايقنى لأبعد الحدود، فقد تعودت دائماً على الوضوح والاختيار بين الأبيض والأسود فقط، أما المساحة الرمادية التى تقع بينهما فلا أطيقها ولا أستطيع التعامل معها من الأصل، المشكلة أن العمل السياسى بكل مستوياته يقع فى تلك المساحة التى تصعب فيها الرؤية وتصيبنى بالارتباك عندما أخوض فيها، بالطبع هناك رجال ممن صادفتهم لديهم القدرة على التعامل ببراعة فى تلك المنطقة ببدائلها اللانهائية يبحرون فيها بمهارة تجعلهم

يستوعبون تفاصيلها ويخرجون منها برؤية واضحة يعرضون معها بثقة مقترحاتهم المدعمة بالأدلة والحجج العلمية والعقلانية فى ملفات تحوى أوراقاً كثيرة بها بيانات وجداول معقدة ناتجة عن دراسات أشد تعقيداً تؤدى إلى نتائج غير واضحة بالنسبة لى، هؤلاء هم أشد الناس إزعاجاً وأكثرهم بغضاً إلى نفسى، عادة ما أقصيهم بهدوء وأبعدهم عن مناصبهم التى تسبب لى الحرج والمقارنات السخيفة التى تصدع الدماغ وتسبب الشوشرة وكثرة الكلام الفارغ، كما أن هذه النوعية من الرجال لا أشعر من سلوكهم وتصرفاتهم بأنهم يدينون لى بالولاء ولا يطيعون الأوامر بالشكل الذى يرضينى ويجعلنى أطمئن إليهم.

***

رؤوس النخيل تتمايل على بساط من النجيل الأخضر الممتد فى حدائق تتخللها ممرات على جانبيها أحواض بها أنوع معينة أحبها من نباتات الزينة، ومن خلفها يبدو البحر بزرقته الغامقة التى تشرح القلب وتريح النفس، هذه المدينة أحد أهم المنجزات التى تحققت فى زمنى، كانت قطعة صحراء مطلة على البحر بها بعض المعسكرات على شاطئها الرئيسى ولا شىء غير هذا، لكنها تحولت إلى مدينة سياحية عالمية تعج بالفنادق الخمس نجوم ولا تنقطع عنها حركة السياح طوال شهور السنة، صحيح أن القاهرة تحولت إلى مدينة بائسة خلال نفس الزمن حتى أصبحت الحياة فيها لا تطاق من شدة الزحام والضوضاء، لكن هذا ليس ذنبى بل ذنبهم، لقد بذلت ما فى وسعى لإنشاء بنية تحتية فى القاهرة وغيرها من المدن الكبرى، لكن السكان تزايدوا بمعدلات فاقت كل الجهد المبذول فى مشروعات الخدمات وتحسين المرافق وتوسيع الطرق وبناء

الأحياء الجديدة والمدارس والمستشفيات التى ظللنا نبنيها لنلاحق الزيادة السكانية دون جدوى، زيادة مستمرة لا تتوقف، ملايين من البشر يتبعها ملايين يطلبون الأكل والعلاج والعمل والسكن والتعليم ومالا نهاية له من المطالب، حتى أصابونى بالزهق فتركت لهم البلد بما فيها يحلون مشاكلهم بأنفسهم فلم يعد يهمنى أن يختنقوا أو يموتوا من الزحام، إنها مشكلتهم وليست مشكلتى وعليهم أن يتصرفوا ويحلوها بعيداً عنى، يعلمون أولادهم فى مدارس أو كتاتيب، يعملون أو يجلسون فى بيوتهم، يسكنون فى عمارات أو فى عشش وملاجئ، يتعالجون فى مستشفيات أو فى غيرها، يتحركون فى الشوارع بالسيارات أو بالحمير والعجل.. لا يهم، المهم أن أجد مكاناً أرتاح فيه وأعمل بهدوء، أستطيع أن أقابل الزوار وضيوف الدولة بعد أن أصبح مرور مواكبهم فى شوارع القاهرة يمثل مشكلة لا يمكن حلها، كل الوسائل التى جربناها فشلت، بل إنها زادت المشكلة تفاقماً ولم يعد يجدى معها أى حل عام، لذلك كان لابد من التصرف والخروج من هذا الجحيم إلى مكان هادئ منعزل عن مشاكل الناس وهمومهم التى لا تنتهى، بالطبع مازلت أتابع كل شىء بنفسى ولا أترك الأمور تجرى بعيداً عن السيطرة، أستعين بمجموعة من الرجال تساعدنى، أترك لهم مساحة كبيرة ليتحركوا فيها حتى يؤدوا عملهم بلا معوقات بشرط ألا يصدعوا دماغى بالتفاصيل المملة والقضايا التافهة المتعلقة بالحياة اليومية للمواطنين، وهى أشياء أعلم بحكم الخبرة الطويلة إنها لا تتوقف بل تتزايد برغم محاولات علاجها، فهم يريدون الحصول على جميع الخدمات مجاناً ودون أن يدفعوا شيئاً، يطلبون أن أوفر لهم الخبز والطعام والمواصلات والسكن والكهرباء والمياه والمجارى

والتليفونات وكافة احتياجاتهم بلا مقابل، لكننى وبعد صبر طويل قررت أن أتعامل بحزم فى هذه المسألة وأخذت فيها برأى ابنى الصغير الذى قال إننا يجب أن نبيع لهم كل شىء وبسعر السوق، حتى نوفر فى النفقات ونحقق عائداً نصرف منه على البلد، أعجبنى اقتراحه جداً وهو على كل حال دارس اقتصاد ويفهم فى هذه الأمور.

نفذت هذا القرار كعادتى بهدوء ودون ضجة أو إعلان لأباغتهم تدريجياً مستخدماً الكلمة العبقرية التى اخترعها أحد رجالى، تحريك الأسعار، أعجبنى جداً هذا المصطلح وأكثرت من استعماله، لا يستطيع أى إنسان أن يدعى إننا قمنا برفع سعر أى شىء ولا أن يشكو، فلا دخل لنا فى الأمر، بل هى آليات السوق التى تحرك الأسعار كيفما تشاء، وهى كما رفعت السعر هذه المرة قد تخفضه فى المرة القادمة، لم لا؟ من الممكن جداً أن يحدث هذا وتنخفض الأسعار.. فى المشمش طبعاً، أو عندما يتجمد الجحيم كما يقولون فى أمريكا، الحق يقال كانوا مهذبين، دفعوا فى صمت ولم يتكلموا أو يثوروا كما فعلوا مع الرئيس السابق الذى رفع أسعار بعض السلع الغذائية عدة قروش وأعلن عن ذلك فى الجرائد وجميع وسائل الإعلام فسمع منهم مالا يرضيه وكادوا يطيحون به، لكننى استطعت ترويضهم بالحكمة وسياسة طول النفس التى أتقنها وأحترف التعامل بها، اكتشفت بهذه الطريقة منبعاً من منابع المال فى جيوب الناس ومدخراتهم وما يخبئونه تحت البلاطة وهم يدعون الفقر، فلم أتردد فى الانقضاض على هذا الكنز لآخذ بالشمال ما أعطيه لهم باليمين، لا شىء فى هذه الدولة بالمجان بعد اليوم، والأسعار نحركها فى السنة مرة أو مرتين وأحياناً ثلاثاً ما داموا يدفعون.

مصر أغنى بكثير مما نتصور، البعض أخبرنى أن مصدر هذا الثراء هو الشعب المصرى نفسه، أعتقد أنى فهمت هذه المقولة حق الفهم وتعاملت معها بوعى كامل ولسنوات طويلة صارت فيها الأحوال على خير ما يرام، من خلال نشأتى فى الريف أعلم طباع الناس وأنهم يستطيعون تدبير أمورهم مهما كانت الظروف، الفلوس موجودة دائماً وتخرج عند الحاجة، أما فيما عدا ذلك فإنهم يدعون الفقر ويتظاهرون بأنهم لا يمتلكون شيئاً، حتى الأغنياء يفعلون ذلك، يخبئون نقودهم ويدعون الفقر.. أنا أفهم هذه الأمور جيداً وأعرف طبيعة هذا الشعب ولا يستطيع أحد أن يخدعنى، لكنهم يحاولون على أية حال، بالطبع أنا لا أهتم بهذه الأشياء وأمضى فى طريقى دون أن أتوقف لأنظر إلى هذه الصغائر، وقد حققنا الكثير بالفعل، نهضنا بالاقتصاد، بنينا مصانع، استصلحنا أراضى، حققنا معدلات تنمية مرتفعة، لكن الناس تشكوا مع ذلك،لا أفهم لماذا؟

التقارير التى تصلنى تؤكد أن عدد أفراد الشعب الذين يمتلكون سيارات حديثة زاد جداً وكذلك معدلات شراء الأجهزة الكهربائية زاد أيضاً وهو ما يدل على ارتفاع مستوى الدخل وانتشار الرخاء، مما يجعلنى مطمئناً لما حققته لهذا البلد وأن ما قدمته من عمل وجهد أثمر فى النهاية وأدى لهذه النتائج الباهرة، أرى هذا بنفسى أينما ذهبت، لم تعد مصر كما كانت من قبل، أصبحت أنظف وأجمل، الحدائق فى كل مكان، الشوارع واسعة وهناك نهضة عمرانية شاملة، عمارات وفيلات، قصور ومبان فخمة تماماً كما يوجد فى مدن أوروبا، لم أعد أشعر بوجود أى فارق من الناحية العمرانية بيننا وبين أوروبا.. بلاش أمريكا حتى لا يقولون أنى أبالغ، أتحقق من أحوال الشعب أثناء جولاتى فى أرجاء البلاد وأسأل الناس

خاصة البسطاء الذين يقولون ما فى قلوبهم ولا يعرفون الكذب والنفاق، يقسمون إنهم يعيشون أحلى عيشة وبعضهم يبكى تأثراً وهو يكلمنى من شدة ما يعانيه من خير.

لكن هناك قلة من المشاغبين وناكرى الجميل يثيرون المتاعب ويتحركون بين الناس بريبة، تصلنى أخبارهم من بعيد، مظاهرات تنظيمات، مؤتمرات، تجمعات، وقد تحدث اعتصامات، شبان لا يجدون ما يفعلونه وعمال مصانع متآمرون وصحفيون مأجورون لا يريدون مصلحة بلدهم ولا يعرفون شيئاً عن هذه البلد أصلاً، لو تركت لهم الحبل سيضيعون كل ما فعلته.

كل هؤلاء تجرأوا بعد ما حدث فى تونس وعلا صوتهم، المظاهرات الأخيرة تدل على أنهم استغلوا مناخ الحرية الذى سمحت له أن يأخذ مساحة يبدو أنها كانت أكبر مما يجب، لكننى سوف أتصرف وأحكم قبضتى عليهم كما فعلت مراراً من قبل، لن يظلوا أكثر من يوم أو يومين بعدها سيعودون إلى بيوتهم وعندها سوف يكون هناك كلام آخر جديد لم يعرفوه قبل ذلك، خاصة الشبان الصغار لابد أن يتعلموا الأدب، نحن دولة مؤسسات ولسنا مثل الدول الأخرى التى يطيح بنظام الحكم فيها مثل هذه التصرفات الصبيانية الصغيرة.

استدعيت على الفور رجال الدولة المختصين واجتمعت بهم لأفهم تفاصيل الموقف وكيف خرجت الأمور عن سيطرتهم، حضر ابنى الصغير معهم وجلس صامتاً ووجهه مصفر، كنت غاضباً عليه ولم أسمح له بالتدخل، طلع عيل فاشل وخيب أملى فيه، دخلوا مكتبى وهم مذعورون كالفئران، لأول مرة أراهم خائفين إلى هذا الحد، أيديهم كانت ترتعش

ووجوههم شاحبة وقد شاخوا وبدا عليهم العجز، استمعت لهم وتبينت أن الوضع أخطر بكثير مما كنت أظن، لعنت سلسفيل أبوهم وشتمتهم وأعطيت لهم الأوامر بالتصرف مهما كانت النتائج.

– يجب أن تنتهى هذه المشكلة بأسرع ما يمكن، شوية عيال مش قادرين عليهم يا مخنثين يا أولاد الكلب؟!

– المسألة أكبر من كده يا فندم، ده البلد كلها خرجت.. لكننا سنتصرف.

– الحزم لابد من الحزم، هناك مليون عسكرى أمن نصرف عليهم وعلى تجهيزاتهم ومعداتهم من دم قلبنا لمثل هذا اليوم، مهمتهم الرئيسية حماية نظام الحكم، أين هم الآن؟

– إنهم فى الشوارع بالفعل سيادتك، ويتعاملون مع الموقف.

– طيب أنا نازل القاهرة لأتابع الوضع بنفسى طالما إنكم مهزئين لا تعرفون كيف تتصرفون، غوروا من أمامى داهية تأخذكم.

بعد انصرافهم أصدرت أمراً فورياً بحصار المطارات والموانى ومنعهم هم وأتباعهم من السفر حتى لا يهربوا من البلد ويتركوها بعد ما غرقت.

***

القاهرة تبدو مختلفة، نزلت فى المطار وبالطبع لم يكن هناك أى فرصة للتحرك فى شوارعها بالموكب، وجدت الهليوكوبتر جاهزة فتحركت بها، لم أرغب فى الذهاب إلى القصر مباشرة، قمت بجولة لأرى الناس فى الشوارع خاصة فى ميدان الزفت التحرير، ماذا فعلت لهم ليثوروا ضدى بهذا الشكل البشع؟ هل هذا جزائى بعد هذه السنين؟ من أين أتى كل هؤلاء؟ نظرت لهم مشمئزاً دون أن يهتز لى طرف، أعصابى ثابتة كالحديد يبدو أنهم نسوا أنى محارب قديم، سوف يرون، سوف يدفعون

ثمن هذه الأفعال، إنهم لا يعرفون شيئاً عن خطط الطوارئ المعدة لمواجهة هذه المواقف، سيبدأ تنفيذها بالتتابع حتى تتلاحق عليهم الكوارث، فى خلال ساعات ستتحول حياتهم إلى جحيم حقيقى لا يتصوره واحد منهم، ستنتهك أموالهم وأعراضهم وحريمهم وأطفالهم وتستباح الشوارع والبيوت والمحلات، سيعرفون معنى الفوضى والذل عندما يطلق عليهم الجيش السرى الذى لم يسمعوا به من قبل لكنهم سيتعرفون عليه حالاً عندما يجدون أفراده داخل بيوتهم يسرقون وينهبون ويفعلون بالحريم ما يشاءون، حتى لا يستطيع أى رجل من هؤلاء الثورجية أن يرفع رأسه بعد الآن ويقدر النعمة التى كان فيها بعد أن تزول عنه وعن أهله، جيش منظم مجهز من المجرمين وأصحاب السوابق والمساجين لا مثيل له فى العالم، يصرف عليه رجال الأعمال الموالون لنا من أعضاء الحزب وهو متصل بجهاز الشرطة السرية ويعمل بالتنسيق معه، أنا على ثقة بأنهم سيجتاحون البلد ويروعون أهلها خلال أيام، كدت أبتسم وأنا أتصور الخراب الذى سيحل على رؤوس المواطنين الغلابة بعد قليل، لكننى حافظت على ملامح وجهى المتجهمة أمام طاقم الطائرة.

أنا على ثقة بأننى سأستعيد السيطرة على زمام الأمور، أكدت هذا لجميع المسئولين فى الدول الصديقة الذين اتصلوا بى، اطمئنوا إنها حالة غليان لتقليد ما حدث فى تونس، مجرد فورة.. لا لا ليست ثورة بأى حال من الأحوال، سوف يهدأ الشعب وتعود الأمور لما كانت عليه، بعد عدة أيام سوف أصدر التعليمات بإيقاف عمليات النهب والسرقة عندما أتأكد أن الشعب قد تعلم الأدب وعرف أن البلد لها كبير، سينشغلون لشهور طويلة فى علاج آثار هذه الأزمة التى صنعوها بأنفسهم وفى إصلاح الكوارث

التى ستنتج عنها، أثناء إعداد الخطاب الذى سألقيه الليلة كان الاستعداد لتنفيذ خطط الطوارئ قد بدأ، التعليمات أن تشمل العمليات جميع أنحاء الجمهورية لإحداث حالة ذعر عام حتى تنفض المظاهرات بأسرع وقت ويعود الجميع إلى الجحور مرة أخرى ولا يفكروا فى الخروج منها بعد ذلك.

التجهيز لإلقاء خطاب ومواجهة الكاميرات لم يعد أمراً سهلاً، عملية مجهدة تستلزم إجراءات كثيرة حتى أظهر على الناس فى مظهر لائق، انتهيت من جلسة التدليك والاستحمام ثم جلست أمام الكوافير، بعدها دخل الماكييير لعمل الماكياج اللازم للإضاءة التليفزيونية، يجب أن أبدو رابط الجأش واثقاً قوياً ليحدث الخطاب أثره فى الناس فيهدأوا قبل أن تبدأ أيامهم السوداء.

# 6

أصيب الناس بالإحباط بعد سماعهم خطاب السيد الرئيس، ظهر متأنقاً وتكلم بأعصاب باردة كأن شيئاً لم يحدث فاستفز جماهير الشعب التى ظلت منتظرة أمام أجهزة التليفزيون فى البيوت وفى الساحات والميادين، لم يكن هناك شك فى أنه يناور ليكسب بعض الوقت دون أن يقدم على أى خطوة حقيقية للإصلاح وأنه مازال سائراً على طريق الخداع والغش، انحنى الكثيرون ممن يقفون أمام الشاشات المنصوبة فى ميدان التحرير وخلعوا الأحذية ورفعوها فى الهواء معلنين رأيهم فى الخطاب وفى الرئيس شخصياً، لم يكن هذا الكلام الساذج ما ينتظرونه بعد أربعة أيام من الثورة قضوها فى الشارع ودفعوا الثمن بالدم حتى كسروا جهاز الأمن وأجبروه على الانسحاب.

الفرح بنزول قوات الجيش وفرض حظر التجول كان إعلاناً بأن الثورة قد حققت أولى خطوات النجاح فى زعزعة نظام الحكم، لكن حالة الفوضى التى بدأت عقب الخطاب بخروج اللصوص والبلطجية من أوكارهم فى عصابات مسلحة للسرقة والنهب أعطت الانطباع لدى الناس بأن هناك حركة مريبة تحدث فى الظلام، من عادة المصريين فى المحن الكبرى التوحد فى مواجهة الخطر فتختفى السرقة وأعمال النهب فى كافة أنحاء البلاد، أما ما حدث فى تلك الليلة بعد الخطاب فمخالف للعرف ويحمل شبهة المؤامرة، اكتشف أهل مصر أن الشرطة لم تنسحب من مواجهة الثوار فحسب بل من جميع مواقعها حتى التى لا تمت للأحداث من قريب أو بعيد، شرطة المرافق وحراسة المؤسسات الحكومية والسفارات والبنوك

والمتاحف والمواقع الأثرية والفنادق والمرور، حتى أقسام الشرطة أغلقت أبوابها وتوقفت عن العمل.

لم يغب عن فطنة الناس فى أنحاء مصر أن هذا التدبير الخسيس تم بأمر من حاكم جبان يريد الانتقام منهم بإباحة أموالهم وأعراضهم وأرواحهم لعصابات البلطجية واللصوص، فحتى ليلة اليوم الرابع لم يكن بين الناس وبين رجال الشرطة الذين لم يتصادموا معهم فى المظاهرات كرجال المرور والحراسات ومكافحة المخدرات والجريمة عموماً أية خصومة، بل إن روح السلام التى سادت المتظاهرين ولم تسمح بحدوث أعمال تخريب فى جميع الشوارع والميادين التى احتشدوا فيها، كانت على استعداد للتعاون معهم ومساندتهم فى تأدية عملهم لحفظ الوطن من أى خطر، فلم يكن إسقاط جهاز الشرطة هدفاً من أهداف الثورة بل إسقاط الدولة البوليسية وأعوانها من الفاسدين سواءً كانوا من الشرطة أو من المدنيين.

على عكس ما توقع الرئيس ورجاله، لم يقبع أهل مصر فى بيوتهم خوفاً من عصابات اللصوص التى أطلقوها عليهم، ولم يصابوا بالذعر، بل تأجج غضبهم ونزلوا إلى الشوارع لحماية أنفسهم وممتلكاتهم، من واقع الخبرة الحضارية الهائلة التى يمتلكونها نظموا صفوفهم بتلقائية وبسرعة مذهلة فى مشهد لم يحدث من قبل فى تاريخ الشعوب.

هجمت عصابات اللصوص المنظمة والمدعمة بالمال من رجال الحكم بضراوة، معتقدين أن غياب الشرطة سيتيح لهم الفراغ للسرقة والنهب والاغتصاب، لكنهم وجدوا الشعب المصرى فى مواجهتهم، مع غياب أول ضوء لنهار اليوم الخامس اعتبر الناس أن كل من يخرج للسرقة هو

خائن للوطن والثورة ودمه مباح، لأول مرة منذ بدء مشكلة الزيادة السكانية تتحول من نقمة إلى نعمة، فمجموعات اللصوص كانت تحاصر بعشرات الشبان والرجال الذين يحملون العصى والسكاكين وينهالون عليهم بغضب جماعى لا يهدأ حتى يحولهم إلى جثث بها رمق من حياة، انتقام أهل مصر كان مروعاً وحاسماً ضد كل من حمل السلاح عليهم وأراد نهبهم وترويعهم وسرقة ثورتهم.

فشل الهجمة الأولى أدى إلى تطوير أساليب العصابات واتجاهها نحو الخداع لإيجاد ثغرة ينفذون بها عملياتهم، بطرق مريبة حصلوا على سيارات شرطة وإسعاف بالإضافة إلى السيارات الملاكى الفاخرة لإخفاء هويتهم وإبعاد الشك عن نواياهم وهم يجوبون الشوارع ليطلقوا النار على الناس بشكل مباغت ثم يفروا، لكن الرشاشات والأسلحة النارية التى يحملونها لم تستطع حمايتهم من بطش الناس الذين رصدوا تحركاتهم بواسطة الهواتف المحمولة واصطادوهم تباعاً بمعاونة قوات الجيش المنتشرة فى الميادين والأحياء السكنية.

أما المساجين الذين فتحت لهم أبواب السجون وتم تزويدهم بالأسلحة النارية، اعتقاداً بأنهم سينقضون على القرى والمدن القريبة ليفتكوا بأهلها، فقد ذهبت الغالبية منهم إلى بيوتهم مباشرة ومكثوا بها وسط أهاليهم لعدة أيام قبل أن يسلموا أنفسهم طواعية لقوات الجيش لتعيدهم لاستكمال مدد سجنهم، وهناك مجموعات أخرى من المجرمين المحترفين وعتاة اللصوص الذين لا شأن لهم بالسياسة وألاعيبها ولا علاقة لهم بعصابات البلطجية التى تعمل لحساب النظام الحاكم، هؤلاء انتهزوا الفرصة للفرار واختفوا فور خروجهم الإجبارى من السجن، ولم يبق إلا

قلة انضمت إلى عصابات السلب وشرعت فى العمل على تنفيذ الخطة المعدة لترويع الشعب، قاموا بكل ما يمكنهم من سرقة مسلحة وخطف واغتصاب وقطع الطرق وتهديد أصحاب السيارات والسائقين بالسلاح وسرقتهم، هجموا على المحلات والبيوت ونهبوها وروعوا أهلها، لكن ظلت جرائمهم داخل حدود الجرائم الفردية التى كانت قد انتشرت بالفعل فى المجتمع أثناء الفترة الأخيرة وارتفعت نسبتها إلى معدلات غير مسبوقة، نتيجة لتراجع القانون وحالة الفوضى التى سادت البلاد مع دخول الرئيس فى الشيخوخة وبلوغه أرذل العمر وعجزه الذى لم يعد خافياً، لم تتحول تلك العمليات إلى حالة عامة لترويع الشعب كما كان مرجواً منها، فقد دافع الناس عن أنفسهم وبلدهم ببسالة وفتكوا بمن طالته أيديهم من المجرمين حتى أصبحت عملياتهم تشكل خطراً على حياتهم وتهديداً حقيقياً لهم بالموت الفورى، وهو ما أدى إلى تراجعهم وفشل خطة الترويع على جميع المستويات، وخاصة هدفها الحقيقى فى القضاء على الثورة ورجوع الناس إلى بيوتهم وانسحابهم من الميادين والشوارع، مرة أخرى تؤثر الكثافة السكانية وتؤدى عملها، استطاع الناس الوجود فى جميع الأماكن فى نفس الوقت، ظلت المظاهرات مستمرة فى الميادين الكبرى بالمحافظات، وتجمع الأهالى أمام بيوتهم وشوارعهم وممتلكاتهم لحمايتها من عصابات البلطجية، فى الشوارع التجارية نزل أصحاب المحلات بأسلحتهم النارية ومعهم عمالهم لحراسة أرزاقهم فى نوبات تستمر طوال الليل، وأسهموا بدور فعال فى القبض على عدد كبير من البلطجية وسلموهم إلى قوات الجيش التى تمركزت بالدبابات على مداخل الأحياء السكنية والطرق الرئيسية، بينما ظلت الدوريات المسلحة

تجوب الشوارع لتحميها، بات من الواضح أن حركة الجيش تسير فى اتجاه مضاد للحكومة الديكتاتورية وأنها تساند الشعب وتحميه، الحس الجمعى للناس بما لديه من مؤشر لا يخطئ التقدير فى هذه الأمور عبر عن هذه المشاعر فى هتاف، الشعب والجيش يد واحدة، الذى أصبح أحد شعارات الثورة.

جيش مصر يمتلك سجلاً ناصعاً فيما يخص علاقته بالشعب وبالمدنيين عموماً، فهو من الجيوش القليلة فى العالم التى لم ترتكب جرائم حرب ولا جرائم ضد الإنسانية، لم تسجل ضده جريمة واحدة برغم كثرة الحروب التى خاضها على مدى قرنين من الزمن.

مع بدء حظر التجوال قبل مغيب الشمس بساعة ينزل الأهالى من بيوتهم بعصيهم وسكاكينهم وأسلحتهم، يتجمع الشبان لا على النواصى كما كانوا يفعلون من قبل ليضيعوا الوقت فى الثرثرة ولكن على مداخل الشوارع والتقاطعات والميادين الداخلية، بمنتهى الجدية يضعون المتاريس التى ابتكروها من كتل الحجارة والبراميل والجرادل المعبأة بالأسمنت والحواجز الحديدية بحيث يستحيل على أى سيارة معادية أن تمر إلى قلب الحى الذى تحول ليله إلى نهار يشغى بالناس، بعد صلاة العشاء تنزل الكراسى من البيوت ليجلس عليها الرجال الأكبر سناً إلى ما بعد منتصف الليل، ثم تتبعها الصوانى وعليها برادات الشاى والأكواب وعلب السكر، وسط مشاعر الترقب القلق والفرح المشوب بأمل التخلص من الديكتاتور حدث تعارف بين جيران يسكنون فى عمارات متجاورة منذ سنوات طويلة لم يتبادلوا خلالها تحية الصباح، توقف حركة العمل فى معظم الشركات والمؤسسات ووزارات الدولة وانقطاع الناس عن الذهاب إلى أشغالهم جعل جلسات السهر تمتد كما يحدث فى أيام الإجازات، جلسات سادها

الود وسرت فيها حميمية افتقدوها منذ زمن وهم يشربون الشاى ويتحدثون بحماس عن الثورة الجديدة التى فاجأتهم بعد يأس وعلى غير توقع، وأحداثها المتسارعة التى يعيشونها يوماً بيوم لتصبح جزءاً من تاريخهم سيفتخرون به كما كان أجدادهم يفتخرون بأنهم عاشوا أحداث ثورة 19، هذه ثورة 2011، قال الكثيرون منهم وهم يؤكدون بأنها ستكون أعظم من ثورة 1919.

– هل تعتقد أنها ستنجح؟

– نعم بالتأكيد.

– إننا نعيش حلماً، هل تتصورون أن هذا الرجل سيرحل ويترك الحكم بهذه السهولة؟

– وأين هى السهولة، لقد خرج الشعب كله ووقف ضده وقفة رجل واحد، لن يستطيع الاستمرار، سيرحل رغماً عنه.

– يا ريت، أتمنى أن أرى اليوم الذى لا يكون فيه رئيساً.

– ستراه قريباً بإذن الله.

– يسمع منك ربنا، لقد بدأ الحكم وأنا شاب فى الثلاثين من عمرى لم أتزوج بعد، والآن أولادى تخرجوا فى الجامعة وتوظفوا وتزوجوا وخلفوا ووصلت أنا إلى سن المعاش وأصبحت جداً وهو مازال رئيس الجمهورية، ضيعنا وسرق عمرنا الله ينتقم منه.

– آآآمين.

رأى اللواء جيش المتقاعد وهو يخرج من بوابة عمارته ابنه الشاب يقف مع صديقه الذى يسكن فى العمارة المجاورة، سلم عليهما وقال لصديق ابنه ملازم الشرطة الذى كان يقف مع بقية الشبان للحراسة وهو يخفى مسدسه تحت ملابسه الشتوية الثقيلة.

– متى سترجعون إلى العمل؟

- حتى الآن لا أعرف يا عمى.

- لقد تعب الناس لغياب الشرطة، ألا تحاول الذهاب إلى وحدتك أنت وزملائك من تلقاء أنفسكم كواجب وطنى؟

- لقد حاولت بالفعل لكن الأوامر أن نظل فى إجازة حتى إشعار آخر.

- وأين قادتكم من الرتب الكبيرة، كيف لا يسيطرون على الموقف ويتصرفون؟!

- أظن أنهم جميعاً يجلسون فى بيوتهم مثلنا!

غمغم اللواء مستاءً.

- هذه المسألة مدبرة لخراب البلد وترويع أهلها.

ومضى إلى الجامع القريب ليصلى العشاء، وبحركة لاإرادية مد يده وتحسس جراب مسدسه المعلق فى الحزام.

لم تلبث المقاهى أن فتحت أبوابها طوال الليل وتحولت إلى مراكز تجمع للسهر والحراسة فى نفس الوقت، أما الأفران فلم تغلق وظلت تعمل على مدى الأربع والعشرين ساعة وسط دهشة الجميع، فقد توقع الناس أنهم مقبلون على فترة شح فى السلع الغذائية خاصة الخبز، فهرعوا فى الأيام الأولى وتزاحموا أمام المخابز والمحلات لشراء ما يلزمهم لتخزينه فى البيوت، لكن الأيام مرت تباعاً والثورة على أشدها وحظر التجوال مفروض من الرابعة عصراً دون حدوث نقص أو غلاء فى الأسعار.

# 7

عندى سيارة نصف نقل أعمل عليها، سيارة قديمة متهالكة لكنها تقضى الغرض، أنا رجل صاحب كيف، حشيش وخمرة وحريم لا مؤاخذة، مزاجى كده، مصاريفى كثيرة، تزوجت عدة مرات وعندى عيال، أشتغل فى السوق مع أصحاب المحلات، أحمل أى بضاعة وأوصلها من مكان لمكان، لكن هذا شغل لا يؤكل عيش، ولا يتماشى مع مزاجى، خصوصاً لما أصحاب المحلات عرفوا أنى أسرق من البضاعة ولم يعودوا يتعاملون معى إلا فى أضيق الحدود، أنا قلت بركة يا جامع بناقص الشغل معاهم، أفضل الشغل المريح الذى يعود علىّ بالربح ويخلص بسرعة من غير وجع دماغ، شغل الليل والدنيا فاضية، أطلع مع جماعة من أصحابنا الحرامية لا مؤاخذة، أوصلهم ثم أنتظرهم حتى يعودوا محملين بالخير، نحمل البضاعة بسرعة ونمشى من المكان وبعدين كل واحد يأخذ نصيبه، لا يوجد مانع من توصيلة لمجموعة من إخوانا البلطجية، رايحين عركة أو فرح أو مشوار فيه مصلحة، نقطع الطريق على واحد قابض فلوس من شغلانة ولا مخلص عملية طالع منها بقرشين، نأخذهم منه بالذوق أو بالعافية، الحقيقة الشغل أصبح كثير فى السنوات الأخيرة، السرقة دايرة فى البلد والخير نازل علينا من كل ناحية، كنت أطلع مرة أو مرتين فى الأسبوع، أصبحت الآن أطلع كل يوم، سرقة نسرق، عركة نتخانق ونضرب، بلطجة نبلطج، كله أكل عيش، لم أعد أخرج فى النهار للسوق، ولم أعد أتعامل مع التجار وأصحاب المحلات، ربنا فتح علينا من واسع، فكرت أكثر من مرة فى تغيير السيارة، قلت أشترى عربية جديدة لكن رجعت فى كلامى،

خفت من الحسد وعيون الناس ولاد الحرام وكلامهم، عادة لا أحب أن أعمل لحسابى حتى لا أدخل فى مشاكل، أحسن شغل يكون مع المعلمين، عندهم مصالح كثيرة لأنهم متداخلون مع الناس الكبار يخدمونهم ويقضون لهم الأشغال الوسخة لا مؤاخذة، أسرح مع رجالهم نعمل الشغل وأقبض فلوسى على كل عملية وأروح الصبح على البيت، فى كثير من الأحيان نسافر عندما يكون هناك شغل فى المحافظات، الناس الكبار يشترون أراضى فى الصحراء يتاجرون فيها ولا مؤاخذة، يبنون عليها فيللات وعمارات عندما تدخل كردون المبانى ويرتفع سعرها، طبعاً يشترون بتراب الفلوس أو من غير فلوس خالص وعندما ترتفع الأسعار يبيعون ويبنون ويتاجرون ويدخلون فى مشاكل مع بعضهم على حدود الأرض وعلى الفلوس، ومن هنا يأتى شغلنا وينفتح لنا باب رزق، الحقيقة الناس الكبار حرامية ولاد قحبة كلهم، يأكلون فى بعض مثل السمك، الكبير يأكل الأصغر منه، الواحد منهم يشترى قطعة أرض ثم يتوسع فيها ويستولى على الأراضى التى حولها حتى لو كانت ملك غيره، كل واحد حسب مقدرته، القوى يأخذ ما يريد والأضعف يضطر للتنازل ويسير أموره، وطبعاً لا يخرج من المولد خالياً، يأخذ نصيبه برضه لكن على قدر حجمه، المشكلة تحدث عندما يريد واحد منهم أن يبتلع لقمة أكبر من زوره، يطلعوا ميتين أمه لا مؤاخذة! الناس الغلابة مثلنا تطلع وسط هذه المشاكل والنزاعات تحرس وتخفر وتحمى حدود الأرض، ممكن نتعارك ويحصل ضرب نار مع رجال الجيران أصحاب الأرضى المجاورة وكل شىء بثمنه، طبعاً الغفر العاديين بتوع الصعيد موجودين، شغلهم نوع آخر غيرنا خالص، يمسكوا عيل حرامى يريد سرقة شكارتين أسمنت

ولا شوية مواسير أو كابلات كهرباء وخلافه من الأشياء الصغيرة، لكن إحنا بتوع المشاكل الكبيرة، نطلع لمدة أسبوعين أو ثلاثة نطوق المنطقة إلى أن تنتهى المشكلة ويتم تسويتها بين الكبار، شغل إرهاب وتخويف وإظهار قوة، طبعاً عندما ينزل أكثر من مائة رجل معظمهم سوابق ومسجلون ومعهم أسلحتهم ليحموا مكاناً لا يستطيع مخلوق أن يتجرأ على هذا المكان، مرة واحدة رأيت أحد الرجال الكبار، حضر بنفسه فى موكب ليرى الموقع، حاجة فى منتهى العظمة، حرس بالبدل والكرفتات وسيارات شرطة فيها ضباط ميرى، أنا وقفت بعيد لكن المعلمين الذين يشغلوننا ذهبوا إليه سلموا عليه وباسوا يده، ظل لمدة ساعة يتمشى فى المكان ثم ركب المرسيدس السوداء ومشى بعد ما أمر بمنح كل واحد منا مائة جنيه نفحة.

عندما حدثت هوجة ميدان التحرير، وضعت يدى على قلبى وقلت فى سرى مصيبة ونزلت على دماغنا، وقف حال وكلام فاضى، كيف نتجرأ على أسيادنا وأولياء نعمتنا؟! وبعدين ما العيشة حلوة ومصر أم الدنيا والخير فيها كثير، مخدرات موجودة.. خمرة موجودة.. نسوان موجودة.. أكل وشرب موجود، ناقص إيه؟ لكن شغل بطر وناس فاضية، مالنا نحن ومال السياسة نفهم فيها إيه علشان نعدل على الريس والحكومة، الراجل كويس وزى الفل وصار له ثلاثين سنة شغال لمصلحة البلد، لكن الشعب المصرى شعب نمرود لايعجبه العجب، عايزينه يرحل ليه، ده ظلم..آه ظلم وافتراء مافيش كلام.

لمدة ثلاثة أيام وأنا جالس فى البيت أشاكس فى الولية والعيال طوال النهار، وبالليل أطلع على القهوة أعرف الأخبار وألعب دومينو على

المشاريب مع أصحابى ونحن نتكلم عن حكاية ميدان التحرير العجيبة، فى نهاية اليوم الرابع انقلبت الدنيا، عرفنا إن الحكومة هربت من ميدان التحرير وإن العيال هناك ضربوهم علقة جامدة، يا خبر أسود! باشاوات الداخلية تهرب وتنسحب من الميدان، مين كان يصدق! طبعاً فرحت فى الداخلية وفى ضباطها الظلمة وقلت إن بتوع الميدان جدعان! لكن بعد قليل سمعنا العجب، الداخلية انسحبت من البلد كلها، لم يعد هناك شرطة فى أى مكان، لا ضباط ولا أمناء ولا مخبرين ولا عساكر، الشوارع فاضية والدنيا سداح مداح وكل واحد نفسه فى حاجة يعملها وهو مطمئن، إلحق يا جدع..، طلعنا من الحارة نجرى، وصلنا الشوارع الواسعة التى توجد بها المحلات والمخازن والسوبر ماركت المكدسة بالبضائع على الجانبين، وجدنا معظمها مفتوح الأبواب وزجاج الواجهات مكسر والناس كالنمل تأخذ ما تقدر عليه وتجرى، فى ثوان دخلنا معهم نحمل فى كراتين وصناديق وأجهزة من كل نوع، ملأت السيارة على آخرها وقلت يا فكيك، وصلت البيت بسرعة نزلت الحمولة ورجعت، كان نفسى أخبط خبطة العمر وأدخل أى بنك أعبى شوالين فلوس أصرف منهم لآخر العمر، ركنت السيارة فى شارع رئيسى وجريت على البنك الموجود فيه، وجدت الباب مفتوحاً والدنيا ظلام كحل والهجامة شغالين فى تحميل أجهزة الكومبيوتر والشاشات والكراسى، وقفت معهم لأتحسس سكة الفلوس، لكن فهمت إن الفلوس كلها فى خزائن حديد كبيرة ولا يمكن فتحها، خرجت زعلان وقلت قليل البخت يلاقى العظم فى الكرشة، التقطت شوية بضائع من هنا وهناك بشكل عشوائى أحسن ما أرجع فاضى، عرفت من الناس إن الصاغة واقفين أمام محلاتهم بالسلاح وبيضربوا أى شخص

يدخل عليهم فى المليان على طول من غير تفاهم، فقلنا نقصر الشر ونبعد عن طريقهم أحسن بلا ذهب بلا قرف.

ثانى يوم الظهر، طلبنى المعلم وقال لى، اطلع عسس فى الشوارع والأحياء القريبة، شوف الأخبار والأوضاع وارجع بلغنى، حاضر يا معلم تحت أمرك، وقلت لنفسى فرصة يمكن نلاقى حاجة نسرقها فى طريقنا، كلمت الولية مديحة الحرامية وقلت لها تلبس وتهندم نفسها وتطلع معنا، ركبت السيارة نصف النقل بجوارى كأننا راجل ومراته محترمين خارجين نقضى مشوار، طلع معنا ثلاثة هجامين ناموا فى الصندوق الخلفى وغطوا أنفسهم حتى لا يراهم أحد، لكن وقت اللزوم يطلعوا ويخلصوا شغلهم، الشوارع خالية من السيارات، أول مرة أرى شوارع مصر غير مزدحمة، لكن الناس فى كل مكان، درت بالسيارة ونحن ننظر لعلنا نجد فرصة شغل، أى شىء ينفع ينسرق، فرصة والشرطة غائبة، لكن الناس كالغيلان فى الشارع، ركنت السيارة وانتظرت لبعض الوقت حتى تهدأ الأحوال، بعد ما مضى على بدء حظر التجوال ساعتين أدرت محرك السيارة ومشينا فى الشوارع بهدوء، ربما نعثر على أى شىء، محل مفتوح وفاضى، بضاعة على الرصيف، قلت أجرب الشوارع الداخلية الهادئة، دخلت منطقة فيللات وعمارات صغيرة حولها حدائق يسكنها الناس الأغنياء الذين لا يعرفون المشاجرات ويخافون من خيالهم، لكننى وجدت الشبان والرجال يقفون بالعصى والسكاكين فى حلقات على النواصى، لم يتعرضوا لنا أغلب الظن بسبب وجود مديحة، سرت لمسافة صغيرة حتى وصلت لمفرق طرق عبارة عن ميدان داخلى صغير، وجدت حواجز براميل وحجارة سدت الطريق، وقفت غصباً عنى، طلع علىّ حوالى

عشرين واحد أحاطوا بالسيارة وتحلقوا حولها، ولاد ناس لكن فى منتهى الشراسة وقلة الأدب، سألونى عن جهة سيرى ولماذا دخلت حيّهم؟ وهم يخبطون على السيارة بعصيهم، طبعاً أنا راجل صايع وقديم فى المهنة، يعنى لن أدخل مكان لأتخبط فيه كالأعمى، لازم أكون مرتب الكلام وجاهز لأى سؤال لو حصل أى موقف، أعرف اسم مستشفى قريبة من المكان، اصطنعت البراءة وقلت أنى أريد الذهاب للمستشفى وضللت الطريق، لكن الذين أحاطوا بصندوق السيارة من الخلف مدوا أيديهم وشدوا الغطاء فكشفوا العيال الهجامة، فى ثوان رأيت أربعة أو خمسة مسدسات مرفوعة فى الهواء والناس جريت علينا من كل ناحية، سمعت أصنافاً من الشتيمة كأنى فى أوسخ حارة فى مصر، الشىء الوحيد الذى أنقذنا أن ربنا سترها والسيارة لم يكن فيها أية مسروقات، وهذا ما قوى قلبى وجعلنى أصيح فيهم:

– إحنا ناس غلابة والعيال دول كانوا شغالين طول الليل ونايمين فى العربية من التعب.

لكنهم لم يبلعوها وقال أكثر من واحد:

– دول شكلهم عصابة حرامية، ودخلوا هنا ليسرقوا.

ظلوا يخبطون على السيارة بالعصى وهم يسبون ويزعقون، ثم تركونا نخرج بعد ما كتبوا رقم السيارة وفحصوا الرخص، لو دخلت هنا مرة أخرى لن تخرج حياً، امشى غور فى داهية.

رجعت وذهبت للمعلم فى القهوة، وجدت سحنته مقلوبة وغضب ربنا نازل عليه، قلت له إن الحالة زى الزفت وحكيت كل ما جرى، استمع وهو صامت، ثم قال بعدما انتهيت:

– انت ابن كلب حمار، من قال لك تطلع ومعاك هجامة، احمد ربنا إنك رجعت سليم، فى ناس غيرك ماتوا وغاروا فى ستين داهية.

قال هذا الكلام بقرف ثم أدار وجهه.

طبعاً خرست ولم أرد وقمت على البيت قبل ما أكمل كوب الشاى.

# 8

فى ما يسمى بالقاهرة الجديدة تقع تجمعات سكانية مغلقة لم تعرفها مصر من قبل، محاطة بأسوار عالية كأسوار السجون، ولها بوابات إلكترونية ضخمة يحرسها رجال أمن، فى داخل هذه الكيانات المعزولة تجد حدائق وبحيرات صناعية بها شلالات، وتتناثر فى أرجائها قصور لها أسوار بداخلها حدائق خاصة شاسعة مكدسة بالأشجار العالية ونباتات الزينة وحمامات سباحة وصالات الجامينيزيم وغرف أنيقة بجوار السور لسكن الخدم والسائقين.

استشرت هذه الكيانات فى الصحراء الممتدة حول القاهرة، كمجتمع جديد يحوى الأثرياء الجدد بمن فيهم رجال السلطة أصحاب الجيوب الواسعة الذين كونوا ثروات من مرتباتهم الحكومية، بعد أن تم تأسيس الفساد وأصبح قانوناً سرياً يجرى التعامل به دون حرج فى كافة أمور الدولة، الرشاوى معترف بها وتمارس علناً، والوظائف تباع وتشترى بمبالغ محددة، والقانون يمكن تجاوزه أو إلغاؤه لمن يستطيع الدفع.

اتجه التفكير لهذا النمط من العمران الذى يؤسس لعنصرية طبقية تفصل الأثرياء وتضع حاجزاً بينهم وبين الفقراء، وتجعل لهم مجتمعهم الخاص المحرم على عامة الشعب، نشأ هذا الاتجاه فى ظل الديكتاتور الأخير وخلال فترة حكمه التى طالت لأكثر مما ينبغى، ويمثل طبيعة شخصيته المتعالية الكارهة للبشر والتى تميل إلى الابتعاد عنهم وازدرائهم، ولاقت قبولاً من رجاله وأتباعهم الذين بذلوا كل جهدهم فى تخريب العاصمة عبر صفقات من النهب المنظم باعوا فيها كل ما طالته أيديهم بقرارات سيادية

خرجت من الرئاسة ومختلف الوزارات ومؤسسات الدولة، وصلت بهم فى نهاية المطاف إلى التفكير فى بيع حديقة الحيوان ومستشفى الأمراض العقلية بالعباسية طمعاً فى العمولات والسمسرة، حتى إذا استحالت عليهم الحياة فيها خرجوا منها إلى مجتمعهم الصحراوى الجديد البعيد عن الزحام والاختناق والتلوث.

هذا المجتمع لم يبنوه ليسكنوا فيه فقط بل ليجنوا من ورائه أرباحاً هائلة أيضاً، الرجل منهم كان يشترى مئات أو آلاف الأفدنة فى الصحراء من الدولة ليستصلحها ويزرعها، قد يدفع مليونين أو ثلاثة يقترضها من البنك بالطبع، ثم يبيع بعد عدة سنوات ربع مساحة الأرض أو ثلثها بعشرين أو ثلاثين مليوناً بعد أن تتحول إلى أرض مبان، العملية برمتها منذ البيع الأول وحتى قبض ثمن البيع الثانى، تتم وفق خطة مرسومة محسوبة الخطوات عبر سلسلة من الصفقات والاتفاقيات المدعومة بقرارات سيادية تأتى من أعلى سلطة فى الدولة، ينال الجميع نصيبهم من هذه العمليات بدءا من المقربين من الرئيس الذين يشكلون الحلقة اللصيقة به إلى ما دونهم، يقتطعون من لحم الوطن ويتاجرون ويبيعون ويقبضون الثمن تماماً كمن يبيع عرضه.

فى أحد هذه القصور الباذخة تحدث حركة مضطربة نتيجة لتجمع عدد كبير من السيارات السوداء، سيارات رسمية مصفحة تدخل من بوابة القصر، تتبعها سيارات حراسة متنوعة بداخلها ضباط شرطة بالملابس الميرى، وأخرى بها ضباط بالملابس المدنية يحملون مدافع الحراسة الرشاشة الصغيرة الحجم، معظم الرجال الذين ينزلون من السيارات ويتجهون إلى باب القصر يبدو عليهم الهرم، يسيرون بظهور محنية،

يتحسسون خطواتهم البطيئة كالعميان إلى الصالون، ومنهم من بلغ به العجز حد الاعتماد على سواعد حراسه ليصعد سلالم المدخل، كان الهم يبدو عليهم وهم يجلسون على كراسى الصالون فى انتظار أن يكتمل عددهم، الذين لايزالون أقرب لسن الرجولة ولم يغادروا بعد إلى الشيخوخة والذين لم يوغلوا فى العمر أشعلوا السيجار وشرعوا فى التدخين وهم يرتشفون كؤوس الويسكى، بعد اكتمال نصابهم انتقلوا إلى غرفة المكتب الواسعة وتوزعوا حول طاولة الاجتماعات، خليط متفاوت الأعمار أصغرهم يقترب من الخمسين وأكبرهم وصل إلى منتصف الثمانينيات، البعض من أصحاب المناصب الحكومية العليا والآخرون رجال أعمال من أصحاب الشركات الكبيرة والثروات الضخمة الذين يسيطرون على اقتصاد الدولة، لكن عضوية الحزب الحاكم تجمعهم، عدد منهم برغم الملابس الفخمة وفحش الثراء البادى على هيئتهم تفوح منهم رائحة نتنة لا تفلح العطور الغالية فى إزالتها، ما تعرضوا له من تهزىء وشتيمة الرجل الكبير وابنه جعلهم لا يستطيعون السيطرة على أعصابهم المنفلتة أصلاً منذ بدء الثورة، وبدا ذلك فى شحوب وجوههم التى ظهر عليها السخط، وفى الضراط الذى يفلت منهم على فترات متقاربة دون أن يشعروا.

كان فشل خطط الطوارئ تباعاً قد أفقدهم صوابهم، ظنوا مع بدء التنفيذ أن الأمر سيستغرق يومين أو ثلاثة تنهار فيهم عزيمة الناس وتنفض ثورتهم ثم يرجعون إلى بيوتهم ليعود الحال إلى ما كان عليه، لكن الشعب فاجأهم برد فعل جديد وإصرار حديدى على المضى فى طريق الثورة برغم الدماء والقتل والترويع، كأنهم أمام شعب آخر غير الذى حكموه لعشرات السنين، لم يدركوا أن مصر تنتفض ناهضة لتضىء

أنوارها رغماً عنهم وتقف على قدميها من جديد لتنظف نفسها منهم!
ارتفعت أصواتهم بالجدل والسباب، كانوا على استعداد لأى عمل يعود بهم إلى ما كانوا عليه، رجال الأعمال عرضوا دفع مبالغ طائلة للتمويل، تناقشوا طويلاً حول الخروج من المأزق والإفلات من الحبل الذى التف على رقابهم وأوشك أن يخنقهم، طبيعة تفكيرهم البدائى فرضت نفسها على مجرى النقاش، قضوا زمناً طويلاً قابعين فى ظلام العزلة، يتحركون فى عالمهم الضيق ضيق أفق رئيسهم، ولا يستطيعون التحرك إلا على الطريق الذى رسمه للتعامل مع أى مشكلة تصادفه، أسلوب واحد لا يتغير ولا يتطور بتراكم الخبرة ولا يتعلم من أخطائه، بل يكرر نفس الخطأ فى كل مرة!

- إحنا قاعدين على الخازوق دلوقت، لازم نتصرف قبل ما نلبسه.
- طالما إن ضرب النار يعمل مشاكل يجب أن نستعمل وسائل جديدة.
- الحجارة وكسر الرخام، أستطيع توفير كمية كبيرة منها.
- تنفع لكنها طرق بدائية نريد أن نتطور عن الشغل القديم بتاع زمان.
- من الممكن الحصول على كتل خرسانة وتكسيرها إلى قطع صغيرة.
- آه دى حلوة جداً تفلق الدماغ على طول.
- إيه رأيكم فى تيل الفرامل يوجد عندى أطنان فى الخردة؟
- يا سلام دى هايلة جداً ممكن تموت من غير رصاص ولا مشاكل.
- هندفع كام للعيال البلطجية، التسعيرة كام دلوقت؟
- من مائة وخمسين إلى مائتين جنيه فى اليوم.
- الله يخرب بيوتهم، فين لما كنا بندفع خمسة جنيه!
- كان زمان يا باشا.

- طيب والعربيات.

- موجودة سعادتك، لكن أنا عندى فكرة ممكن تنفع.

- إيه هى؟

- نكلم الناس بتوع الهرم، نحضر خيل وجمال ونهجم على العيال بتوع الميدان نخلص عليهم فى ساعة زمن.

- الله، هو ده الشغل، يا سلام على الأفكار العظيمة.

- تلميذ سعادتك.

- عايزين الراجل الكبير يرضى علينا ويسامحنا، قبل ما البلد تضيع مننا ونروح فى داهية.

***

لا تنازل.. لن أعطيهم شيئاً، قالها الرجل الكبير بعناد وهو يتابع إعداد خطابه الثانى، نلعب على النغمة العاطفية، الناس ممكن أن تتأثر، نضحك عليهم بكلمتين وخلاص حتى يهدأ الجو وينسوا الموضوع، ثم نتصرف بعد ذلك!

كانوا قد تابعوا بحنق نجاح الدعوة لتجمع مليون فرد من الشعب فى قلب القاهرة طالبوا جميعهم بإسقاط النظام ورحيل الرئيس، ارحل يعنى امشى لو ما بتفهمشى، بعد ثمانية أيام على بدء الثورة تبلورت المطالب وتركزت فى هدف واحد هو رحيل الرئيس عن الحكم، لم يعد الأمر يتوقف على حدوث إصلاحات أو تعديلات دستورية أو تغيرات وزارية، كان الأوان قد فات لكل هذه المطالب الفرعية، وارتفعت طموحات الثوار لهدف أسمى، لم يكن أكثر المتفائلين يحلم به قبل بداية الثورة، أصبح خلع الرئيس من الحكم مبدأ لا تراجع عنه، تجمعت عليه جميع طبقات وفئات وأطياف

الشعب، كان ميدان التحرير قد تحول إلى مكان للحياة أكثر منه مكان للتظاهر، أقيمت خيام للإقامة فى الحديقة الرئيسية يعتصم فيها آلاف الناس حتى يرحل الرئيس، الكثيرون من سكان وسط البلد فتحوا بيوتهم واستضافوا أصدقاءهم ومعارفهم ممن يقطنون فى الأحياء البعيدة، ليس فقط لصعوبة الانتقال والتحرك فى القاهرة بسبب حظر التجوال ولكن ليظلوا معاً فى الميدان يضغطون على قلب الرئيس، حضرت طوائف من أهل الريف ليعسكروا فى الميدان ويساندوا الثورة، افترشوا الأرصفة وناموا عليها متحملين كل ما يصادفهم من صعوبات فى سبيل تحقيق هدفهم برحيل الرئيس.

الشبان والشابات أقاموا حواجز على جميع مداخل الميدان لتفتيش الداخلين وفحص بطاقاتهم الشخصية للتأكد من المهنة، تبين أن معظم الذين تسللوا بين المتظاهرين وقاموا بالشغب والتحرش بالناس من رجال الشرطة السرية، كان الشبان يتصدون لهم ويقبضون عليهم ثم يسلمونهم لرجال الجيش المرابطين فى منطقة وسط البلد، عملية التفتيش وفحص البطاقات كانت تحدث بنظام مصحوبة باعتذار مهذب يعقبها الترحيب بأى فرد من الشعب يرغب فى الانضمام لأهل الميدان، وسط حالة من البهجة تسرى بين الآلاف التى لا يعلم عددها إلا الله كأنها أيام عيد، معنويات الجميع مرتفعة إلى السماء، ليس فقط لهذا الونس والترابط الذى يعطيهم الشعور بالقوة والمودة، ولكن لإحساس الجميع بعودة الكرامة التى افتقدوها لسنوات طويلة، وأنهم فى سبيلهم لاسترداد روح مصر الجميلة التى سلبت منهم، وإحساسهم بأن الكلمة لهم الآن، وقد أصبح لهم وجود فى بلادهم التى عاشوا فيها غرباء طوال سنوات الحكم

الديكتاتورى، لم يكن سهلاً زلزلة عرش أحد أكبر الطغاة فى العالم وصاحب التاريخ الحافل بالقمع والخداع والفساد السياسى والإدارى، لأول مرة منذ عقود يتنفس الناس هواء الحرية ويوقنون بأن الحلم بخلع الطاغية وإزاحته عن الحكم قد بات وشيك التحقيق.. بأيديهم وليس بأيدى القدر المتمثل فى الموت الطبيعى أو الاغتيال كما كانوا يتمنون قبل اندلاع الثورة.

بعد أيام من الوجود فى الميدان أصبح لكل كتلة مكانها، بشكل تلقائى تجمع أصحاب كل تيار معاً فى مكان محدد أصبح معروفاً لهم وللآخرين، حركات الشبان الذين أشعلوا الشرارة الأولى للثورة وظلوا على مدى الثلاث سنوات الأخيرة يناضلون فى الشوارع وعلى شبكات النت مطالبين بإسقاط الرئيس هاتفين بها فى كل مكان معلنين رفضهم لحكمه، والليبراليون والمجموعات اليسارية وجماعة الإخوان المسلمين، كل من يفد على الميدان يتجه مباشرة إلى الكتلة التى ينتمى إليها، لكن روح التعاون والإخلاص لقضية الوطن كانت تجمعهم وتذيب الخلافات القديمة، روح لم يعرفوها أو كادوا أن ينسوها خلال السنوات الثلاثين الماضية، دأب فيها النظام على تأجيج الخلافات وإشعال نارها بين جميع الفرق، ولجأ إلى كل الحيل لزرع الفتنة بين المسلمين والمسيحيين التى لم تتأجج فى زمن كما تأججت فى ظل هذا النظام الذى برع فى زرع الكراهية وتوزيعها بالعدل على الجميع، تقريباً لم يترك وسيلة من الوسائل المستعملة فى الدول البوليسية القمعية للسيطرة على الشعوب وإخضاعها إلا واستعملها، ظناً بأن إضعاف الشعب سيطيل بقاءه فى السلطة حتى لو كان الثمن حرق الوطن، استخدم الجماعات الدينية فى تخويف الناس، قام بتفجيرات

وبعمليات إرهابية نيابة عنهم ونسبها إليهم ليس فقط ليسوء سمعتهم ولكن لإلهاء الناس وصرف انتباههم إلى قضايا هامشية بعيدة عن فساد النظام سياسياً وتعثره فى معالجة مشاكل المجتمع والتعامل معها من الأصل.

على الرغم من عدم وجود أعراق وأجناس وقبلية فى مصر من الأساس، لكنهم مع ذلك حاولوا اللعب بالأوراق القليلة الموجودة إلى أقصى حد ممكن، وحققوا فى هذا المشوار نجاحاً فاق ما حققه الإنجليز أثناء احتلالهم لمصر، كان النظام الثقيل قد دفع بالناس إلى نقطة النهاية التى يتساوى عندها الحياة والموت، جمع بين الفقر والفتن والاستبداد، غافلاً عن مبدأ أساسى فى السياسة، الشعوب تستطيع تحمل دكتاتورية الحكم فى حالة وجود الرخاء، وتستطيع تحمل الفقر مع وجود الديمقراطية، لكنها لا تستطيع تحمل الاستبداد والفقر معاً، وضع كهذا يجعل الثورة عليه حتمية.

فى مساحة ضيقة تحت تمثال الشهيد عبد المنعم رياض وقفت مجموعة شاذة عن الشعب من المرضى بالمازوخية والذين لديهم شعور بالدونية واحتقار الذات، يرفعون لافتات تؤيد الرئيس وتعتذر له عن قلة أدب الشعب المصرى الذى ثار عليه، يهتفون بحماس مدفوع الأجر هتافات باهتة تضيع فى الهواء ولا تترك أثراً، كان المارة ينظرون إليهم باستغراب وهم فى طريقهم لدخول الميدان ويبتسمون ولا يأخذونهم مأخذ الجد.

فى الوقت الذى دمعت فيه أعين معظم النساء وهن يستمعن إلى خطاب الرئيس فى بيوتهن، عندما قال إنه يريد أن يدفن فى أرض الوطن الذى ضحى من أجله فى الحرب والسلم، كان مئات من البلطجية بقيادة رجال

الشرطة السرية يتجمعون لحصار ميدان التحرير، بعد توزيعهم على جميع الشوارع المؤدية إليه، فى الصباح الباكر وصلت العربات المحملة بالحجارة الخرسانية وشكائر تيل الفرامل المصنوعة من الصلب، معظم العربات كانت تابعة لمؤسسات الدولة الخاضعة للحزب الحاكم.

الكثيرون ممن شاهدوا خطاب الرئيس على الشاشات الموضوعة فى الميدان تأثروا بما قاله وصدقوا وعده بعدم الترشح للرئاسة فى الانتخابات القادمة، وأنه سيعمل على تعديل مواد الدستور الخاصة بالترشح خلال الشهور الباقية لضمان نزاهة...

إلى حد ما أحدث الخطاب المكتوب بعناية انقساماً فى صفوف الثوار نتيجة لحالة التعاطف التى سرت بين الناس، قال الكثيرون أن الرجل انتهى والأهم أن مشروع توريث الحكم لابنه وهو الدافع الأكبر للثورة قد مات ولن يضير أن نصبر بضعة شهور أخرى يتم فى آخرها انتقال ديمقراطى للسلطة، عن طريق الانتخابات دون الدخول فى متاهة الحسابات السياسية لحكم البلد خلال غيابه أو عزله، مال الأكبر سناً لهذا الرأى الذى يعتقدون أنه الأسلم خوفاً من وصول العسكريين إلى حكم البلاد وتكرار تجربة ثورة يوليو التى أسست لدكتاتورية الرئاسة، ويعتبر هذا الرجل الذى جمع على الشعب السوءتين القمع والفقر امتداداً لها.

لكن الشباب كانوا أكثر وعياً من الكبار ورفضوا هذا الرأى وعارضوه بشدة، إنه مخادع وكذاب فلا تصدقوه، ولو انفضت الثورة ورجع الناس إلى بيوتهم فسيجد ألف حيلة ليرجع عن وعوده ويستمر فى الحكم، وساعتها لن يرحم أحداً، سيعود بأجهزته الأمنية ليصفى حساباته مع الجميع، كانت أيدى الشباب فى النار وأسماؤهم معروفة لدى الأمن، ولا

يعنى رجوعهم إلى البيوت سوى السجن أو القتل بعد أن تهدأ الأحوال وتخمد الثورة، لابد من رحيله عن الحكم، فمهما تكن العواقب فلا يمكن أن تكون أسوأ من استمراره.

ربما كان رئيس الوزراء المعزول بعد أيام من الثورة الأسوأ والأقل كفاءة والأكثر فساداً فى تاريخ الوزارات المصرية، لكن رئيس الوزراء المعين بعده كان الأتعس حظاً، فقد حمل أوزار الحكم كاملة ووقف ليواجه بها جموع الشعب الثائر، كعادة من يتولون هذا المنصب فى الدول الديكتاتورية لم تكن صلاحياته تزيد عن صلاحيات سكرتير الرئيس إلا بما يتلاءم مع المظاهر الشكلية للمنصب، وجد الرجل نفسه فى موقف العاجز المدافع عن نظام حكم قد سقط بالفعل، وبدا فى تصريحاته المتناقضة ونبرة كلامه المترددة أنه غير مقتنع بما يحاول أن يقنع به الناس، مما جعله يلجأ دون أى عذر للمراوغة والتحايل واختلاق المبررات التى لم تنطل على أحد، بل زادت من حنق الجماهير الغاضبة عليه وعلى الرئيس والنظام الحاكم بأكمله، انزلق الرجل إلى وعود بحماية المعتصمين فى الميدان وعدم التعرض لهم طالما أنهم مسالمون ولا يقومون بأعمال شغب، دون أن يدرى أن الميدان يطوق فى نفس الليلة بالبلطجية والمجرمين، وأن التجهيزات تتم للهجوم على الميدان وإخلائه بالقوة وضرب الموجودين فيه.

# 9

فى هذا اليوم الأربعاء بدا الوضع فى الميدان مختلفاً منذ الصباح الباكر، مجموعات البلطجية وقفت علناً بالسيوف والجنازير والأسلحة البيضاء لتمنع الناس من دخول الميدان، وبدأوا بالتحرش بالمعتصمين فيه محاولين اقتحامه، تجمع الشبان لمواجهتهم والتصدى لهم بأيديهم الخالية من الأسلحة.

عربات النقل التابعة لعدد من الهيئات الحكومية كانت تصل محملة بالمزيد من المجرمين والمسجلين خطر الذين أصبحت الحكومة تستخدمهم فى أعمالها القذرة منذ عدة سنوات، تحديداً مع وصول بعض رجال الأعمال من ذوى السمعة السيئة إلى مناصب الدولة العليا، تعودوا خلال رحلتهم فى جمع المال على الاستعانة بالخارجين على القانون فى أعمالهم المشبوهة غير القانونية، وفى تهديد خصومهم وإرهاب منافسيهم، كونوا ما يشبه العصابات المنظمة فى ظل حكم رئيس لا يعبأ بالقانون، وسمح بتحويل الفساد من حالات فردية لذوى الضمائر الغائبة إلى فساد مؤسس يعمل تحت رعاية الدولة وبعلم رئيسها.

استوطن الفقر المدقع أرض مصر، وتبعه الجهل نتيجة لانعدام كفاءة الرئيس وضعف قدرته على إدارة الدولة منذ يومه الأول فى الحكم، وجعل منها أرضاً خصبة لنمو البؤس، يرتع فيها العاطلون واليائسون والذين فقدوا الأمل فى الحياة الكريمة ولم يجدوا أمامهم أى فرصة للعمل مما دفعهم إلى الجريمة بكافة أشكالها بعد أن أكل الفقر إنسانيتهم، وهو ما سهل على المنحرفين من أصحاب المال اصطيادهم وتكوين عصابات

منهم على استعداد للقيام بأى عمل مهما بلغت خسته مقابل المال.
استمرت المناوشات والرشق بالحجارة وقطع الخرسانة حتى الظهيرة، ثم حدث أمر عجيب سيعد بعد ذلك من المضحكات المبكيات التى لا تحدث فى بلد من بلاد العالم سوى مصر، اقتحمت الميدان قافلة من الخيل والجمال أثارت دهشة الناس وحيرتهم، ولم يعرفوا فى بداية الأمر إن كان مجيئهم لمساندة الثورة أم لسبب آخر؟ وتناثرت الأقوال بأنهم من سكان نزلة السمان الذين يعملون فى تأجير خيولهم وجمالهم وحميرهم للسائحين، وقد أضيروا فى أرزاقهم من توقف حركة السياحة، وجاءوا ليعلنوا اعتراضهم على المظاهرات والثورة.
– أما أولاد كلب صحيح، ما الشعب المصرى كله متعطل عن العمل بسبب الثورة، لابد من الصبر.
لكن تبين أنهم جاءوا لغرض آخر أكثر دناءة، فسرعان ما انضموا للبلطجية وشرعوا فى الهجوم على الموجودين فى الميدان وضربهم بالكرابيج والعصى والرمح بالخيول والجمال لتفريقهم وتشتيتهم لينفضوا، كانوا من صبية الاصطبلات السذج، يجيدون ركوب الخيل والتعامل مع الحيوانات، لكن لا خبرة لديهم بالقتال والضرب بعكس أقرانهم البلطجية، خافت الخيل وبدا عليها الذعر وهى تخوض بين البشر الغاضبين الذين يتصايحون وتهدر أصواتهم بالهتافات والشتائم، فانزلقت ببعضهم وهى تجرى على الإسفلت، فتلقفهم الناس وانهالوا عليهم باللكمات والصفعات والأقفية والركلات لتزرق أجسادهم وتتورم فى ثوان، أما الذين ثبتوا فوق الجياد فقد تصرف الناس معهم بتلقائية من وحى الموقف فنغزوا الجياد بما توفر من آلات حادة فجمحت وأوقعت راكبيها بين أيدى الناس

وأرجلهم فدعكوا بهم أرض الشارع، أما راكبو الجمال فكانوا فى وضع آمن نسبياً لكن الشبان استطاعوا ببسالة أن يوقعوا بعضهم وينزلوا بهم ما يستحقونه من ضرب.

أسفرت المعركة عن كثير من الضحايا تعرضوا للدهس تحت الحوافر القاسية، ونقلوا فوراً إلى الأطباء المتطوعين الذين أقاموا مراكز للإسعافات الأولية فى عدة أماكن بالميدان، استغل البلطجية حالة الفوضى وما أحدثه الخيالة والجمالة من هرج وتشتيت لصفوف الثوار فشنوا هجوماً هائلاً من جميع جهات الميدان فى محاولة لإخلائه، استخدموا ما لديهم من أكوام الحجارة الخرسانية وتيل الفرامل الذى كانت عربات النقل الحكومية تمدهم به كقذائف نزلت كالمطر على ساحة الميدان متسببة فى إصابات بالغة بين جمهور الثوار، مما دفع أغلبية من فيه إلى الاختباء مؤقتاً خلف الدبابات وعربات الجيش الضخمة التى وقف جنودها وضباطها موقف الحياد على اعتبار أن الجميع مدنيون، بينما خلع الشبان ألواح صاج السور الذى يدور حول موقف الأتوبيسات القديم المتوقف عن العمل منذ سنوات، وصنعوا منها سواتر متحركة يتنقلون بها من مكان لمكان ليصدوا هجوم البلطجية بالتقاط قطع الحجارة التى تغطى الأرض ومعاودة قذفها عليهم، وابتكروا من وحى الموقف أنواعاً عجيبة من خوذ الرأس، البعض وضع أغطية أوانى الطهى أو الآنية الألومنيوم نفسها وربطها بأشرطة حول رأسه، وهناك من لم يجد سوى الزجاجات البلاستيكية فوضع ثلاثة أو أربعة منها على رأسه وربطها بحبال رفيعة، كانوا يتحركون وهذه الخوذ التى تعطيهم مظهراً مضحكاً ثابتة على رؤوسهم، وبالفعل أظهرت هذه الوسائل جدواها وثبت

فاعليتها فى صد الحجارة وتخفيف إصابات الرأس، كانوا ينظرون إلى بعضهم البعض ويبتسمون، وقد يضحكون على غرابة مظهرهم ويتبادلون التعليقات الساخرة برغم ما هم فيه، ودون أن يتوقفوا عن تأمين الميدان والدفاع عنه.

كون الشبان فرقاً للدفاع عن مداخل الميدان العديدة ومنع اقتحامه، بالإضافة إلى فرق أخرى حرة للتدعيم مهمتها مساندة أى فرقة تتعرض لهجوم، تحولت ساحة الميدان الواسعة إلى ساحة حرب شرسة مرة أخرى، لا تهدأ حركة الشبان الذين يجرون فى كل مكان، ينقلون المصابين، ويقذفون عصابات البلطجية بالحجارة ويقبضون على من يتسلل منهم ليضرب من الداخل كما كانوا يفعلون أيام المظاهرات، كان الشبان يتجمعون بسرعة خاطفة حول من يشكون فيه، يشلون حركته ويجبرونه على إخراج محفظته ليتأكدوا من هويته، اكتشفوا عدداً كبيراً من رجال الشرطة السرية الذين حاولوا أن يندسوا بينهم فأشبعوهم ضرباً ثم سلموهم لقوات الجيش، أما البلطجية المأجورون فكانوا يكتشفونهم بحاسة عجيبة تكونت لديهم عبر المواجهات الدامية معهم وقلما أخطأت فى التمييز بينهم وبين غيرهم من المواطنين الذين كانوا يدخلون الميدان للانضمام إلى الثورة، كانت المائتا جنيه ورق جديد من فئة الخمسين أو المائة علامة واضحة تميزهم، جميعهم يضعون ثمن خيانتهم فى جيوبهم.

– أنا معاكم، والله العظيم معاكم..

كل منهم كان يحاول التملص وهو يصيح: أنا معاكم، لكن هذا لم ينقذهم من الضرب المبرح، ما تعرض له شبان الميدان جعلهم كالوحوش جرأة وشجاعة وقدرة على القتال المتواصل لساعات، لكنهم مع ذلك لم يفقدوا

نبلهم وإنسانيتهم، لم يقتلوا واحداً من البلطجية، كانوا يضربون بأيديهم المجردة حتى ينهار المجرم ويستسلم ثم يقيدونه ويسلمونه لرجال الجيش، لكن عنف الضرب كان يتناسب بطبيعة الحال مع الموقف، فأحد البلطجية ممن يقفون بالسنج والجنازير ليعترضوا طريق القادمين للميدان من شارع طلعت حرب تجرأ وترك رفاقه وتقدم فى المسافة الفاصلة بين الفريقين بعد معركة حامية بالحجارة، يبدو أنه تلقى حجراً أفقده صوابه أو كان تحت تأثير المخدرات، فاقترب من فرقة الشبان التى تحمى المدخل وهو يشتمهم بأقذر الشتائم ويسب دينهم ودين أمهاتهم ويلوح بجنزير غليظ فى يده متحدياً أى مخنث فيهم أن يتقدم ناحيته، فى لحظة قفز خمسة شبان الأمتار التى تفصلهم عنه وانقضوا عليه بنار الغضب التى أججها فى صدورهم، فسحبوا منه الجنزير وضربوه به بقسوة حتى اختفت معالم وجهه وتغطى جسده بالدماء ثم لفوا قدميه بالجنزير وسحبوه على الأرض كالذبيحة بينما زملاؤه يراقبون ما يحدث من بعيد دون أن يجرؤ واحد منهم على نجدته.

***

وصلت فى التعليم إلى الثانوية العامة، فى المدرسة كنت أتشاجر طوال الوقت مع زملائى ومع المدرسين، أنا بطبعى أحب الشقاوة منذ صغرى، ساعدنى جسمى على ذلك، أضخم جسم بين التلاميذ، حتى الذين أكبر منى فى العمر، بل ومن المدرسين أنفسهم، منذ أن دخلت الثانوى وأنا أقضى معظم اليوم الدراسى فى الشارع مع شلة من أصحابى، نقعد على قهوة، ندخل سينما، نعاكس بنات، نشاكس فى خلق الله، نضرب وننضرب، حتى جاء يوم تورطنا فى مشاجرة كبيرة مع ناس تخص المعلم،

بالطبع لو كنا نعرف منذ البداية لما تعرضنا لهم وكنا انسحبنا، فى منطقتنا يعتبر الدخول فى مشكلة مع الشرطة وبهدلة الأقسام والمخبرين أهون من منازعة المعلم ورجاله والدخول فى مشاكل معهم، يومها أخذونا وحبسونا فى مخزن من ضمن أملاك المعلم وضربونا علقة موت بالكرابيج، ثم أطلقوا سراحنا بعد يومين.

ورثت ضخامة الجسد عن عائلة أمى وأخوالى، أبويا رجل عادى الجسد وفى حاله لا يحب المشاكل، يعمل فى وظيفة حكومية بسيطة والفقر ملازم له طول عمره، وأنا لا أحب الفقر والعيشة الناشفة وقلة الفلوس، أحب الحرية والتمتع بالدنيا، آكل وأشرب على مزاجى وأصاحب النسوان وأصرف من غير حساب.

عندما وصلت إلى الثانوية العامة بطلوع الروح، وبعد أن رسبت عدة سنوات خلال سنوات الدراسة لم يعد لدى طاقة على مواصلة التعليم والذهاب إلى المدرسة كالصغار، فى يومى الأخير بها وكنا فى بداية العام الدراسى، شتمنى أحد المدرسين فضربته علقة محترمة فتم رفتى من المدرسة وخرجت منها غير نادم، ذهبت من فورى إلى أصدقائى الذين يعملون فى الفرق الموسيقية التى تصاحب المغنين والراقصات واشتغلت معهم، كنت قبل ذلك أسهر فى الأفراح التى تقام فى حينا وأختلط بهم فى جلسات الكيف والمزاج التى تستهوينى، كانوا يتعاملون معى بكرم فيما يتعلق بالأكل والشرب والمكيفات، بل إن الواحد منهم كان يفرح عندما أطلب منه سلفة مالية ويعطينى أزيد مما طلبت، وكثيراً ما عرضوا علىّ أن أعمل معهم كبودى جارد، فمجرد وجودى بينهم كان يجعل أى سكران أو صايع من الذين يكثرون فى الأفراح يفكر ألف مرة قبل أن يقدم على

التحرش بهم خاصة فى حالة وجود الراقصات.

هذا العمل كان أول خطواتى على طريق احتراف المهنة والتكسب منها، لم يعد العمل مقصوراً على حينا والأحياء المجاورة، كثيراً ما كنا نسافر إلى الأقاليم بميكروباصات خاصة تعمل مع الفرقة لنحيى الأفراح والمناسبات ونرجع قرب الفجر، نسير على طرق نائية وسكك مقطوعة، المعدات والآلات التى نحملها على الميكروباص تساوى عشرات الآلاف من الجنيهات، وعادة ما تكون مطمع للكثيرين فى حالة عدم وجود حماية كافية.

كنت أقابل بعض رجال المعلم فى الأفراح فأرحب بهم وأتودد إليهم وأقوم على خدمتهم، وأنا أرجوهم أن يكلموه ليسامحنى ويعفو عن غلطتى فى حقه، وأنه لن يهنأ لى عيش قبل أن أعرف أنه راض عنى، كانوا يضحكون ويمزحون معى وهم يتذكرون علقة المخزن ويطيبون خاطرى بكلمتين، كنت لسه عيل صغير وطايش، لكن لم يعدنى أحدهم بشىء.

فى ظهيرة أحد الأيام وكنت لا أزال نائماً تلقيت اتصالاً على المحمول من أحد صبيان المعلم، شاب يماثلنى فى العمر وأعرفه من بعيد، أخبرنى إنه ينتظرنى على ناصية الحارة، ارتديت ملابسى ونزلت على الفور، نادانى باسم الشهرة وهو يصافحنى وقال لى، تعال نروح مشوار، فى الطريق أخبرنى أن المعلم يريد أن يرانى، ذهبنا إلى مكان بعيد فى آخر الحى، جراج كبير مقام على أرض فضاء حوله سور عالٍ به سيارات نصف نقل وميكروباصات وأتوبيسات، دخلنا الجراج ومشينا بين العربات حتى وصلنا إلى مكتب المعلم، رأيت عدة سيارات حديثة من أغلى الأنواع تقف فى أحد الأركان وحولها عدد من الرجال الأشداء.

– تقلع الجزمة على الباب وتقف بأدب حتى ينادى عليك المعلم، تدخل ولما تسلم عليه تبوس يده.. فاهم.

– حاضر.

وقفت حافياً بجوار عتبة الباب وعينى فى الأرض، أخذت أختلس النظر خفية إلى الداخل، المكتب فخم جداً ومكيف، كان هناك عدد من الرجال يقفون فى الغرفة الواسعة بينما يجلس المعلم خلف مكتبه وتجلس فى مواجهته سيدة شقراء فى غاية الجمال والأناقة تفوح رائحة عطرها فى أرجاء الغرفة، وأمامها فنجان قهوة مذهب ترتشفه على مهل وهى تتكلم بصوت خافت لم أستطع سماعه من مكانى والمعلم ينصت لها باهتمام ويتعامل معها بمنتهى الاحترام، قامت بعد دقائق فوقف المعلم وانحنى وهو يسلم عليها قائلاً.

– زيارتك شرف كبير يا هانم.

مرت بجسدها الأبيض الفاتن بجوارى فلفحنى عطرها المثير، حتى تمنيت أن ألقى بنفسى عليها وألتهمها التهاماً، خرج خلفها رجلان، وسار معها المعلم حتى باب سيارتها الخلفى، فتح لها أحد الرجلين الباب ثم أسرع وجلس على مقعد القيادة وجلس زميله بجواره، ظل المعلم واقفاً حتى تحركت السيارة ثم عاد إلى غرفة مكتبه، مر بجوارى دون أن يلتفت، جلس على مقعده ونادى الفراش وطلب منه زجاجة بيرة، أسرع الفراش وعاد بصينية عليها زجاجة مستوردة وكوب كريستال، أشعل المعلم سيجارة حشيش وتجرع رشفة كبيرة من الكوب بصوت مسموع، ثم نظر إلىّ.

– تعال.

أسرعت، سلمت عليه وقبلت يده ثم رجعت خطوتين لأقف أمام المكتب.

– تعلمت الأدب أم أنك مازلت بحاجة إلى تربية؟

– خدامك يا معلم.

– أنا عينى عليك من مدة.

– تحت النظر يا معلم ويشرفنى.

– يمكن يكون لك شغل عندنا.

– خدامك وتحت أمرك يا معلم.

هز راسه وقال.

– طيب روح دلوقت.

قبلت يده وأنا أسلم عيه وخرجت، تركنى لأكثر من ثلاثة أشهر ثم أرسل لى.

***

البلطجية أنواع ودرجات، هناك من ورث المهنة عن عائلته وحياتهم كلها تعتمد على هذا العمل، أغلبهم يمتلكون مقاهى أو ورشاً كستار لنشاطهم الأصلى، هؤلاء يمتلكون العزوة ولديهم أموال وأتباع وكبير كل عائلة منهم يسيطر على منطقة بأكملها، لا يستطيع أى رجل يمارس مهنة إجرامية أن يدخل ليعمل فى هذه المنطقة إلا بعد أن يستأذن منه، وهم على صلة بضباط المباحث الذين يستعينون بهم فى الكشف عن الجرائم التى تحدث فى مناطقهم، كما يستخدمونهم فى الحصول على معلومات عن عالم الجريمة عموماً تساعدهم فى سرعة التوصل إلى الجناة فى بعض القضايا المهمة، مثل قضايا الرأى العام التى يهتم الضباط بسرعة كشفها، وفى المقابل يترك لهم الضباط مساحة يتحركون فيها وينفذون

عملياتهم، هذه المساحة أخذت تتسع فى السنوات الأخيرة حتى وصلت إلى حد التواطؤ واتخذت شكلاً من أشكال التعاون خاصة فى أيام الانتخابات وفى مواجهة حركة المظاهرات المعارضة للحكومة.

وهناك المحترف الذى لا مهنة له غيرها، هؤلاء خلقة ربنا يعنى الواحد منهم ينشأ ليجد نفسه بحكم تكوينه الجسمانى والنفسانى يهوى الشجار والمشاغبة ويسعى للمشاكل بقدميه وإذا لم يجدها يخترعها، وهم لا طاقة لهم على تعلم حرفة أو على العمل المنتظم فى أى مهنة، سرعان ما يملون بسبب ضيق خلقهم وسرعة غضبهم وعدم قدرتهم على التفاهم مع الآخرين لسوء ظنهم بالناس ورعونتهم، كل منهم يعتبر قوة جسده وأعصابه هى رأسماله ومصدر دخله، وحياته تدور فى محور هذا الجسد ومتطلباته النهمة التى يسعى إلى تلبيتها مهما كانت النتائج وبغض النظر عن أى عواقب، وهناك المحترف الذى دخل المهنة بالصدفة أو بسبب حادثة طارئة غيرت مجرى حياته، كشاب مسالم تورط فى مشاجرة قد تكون دفاعاً عن أحد أصدقائه أو معارفه، وبسبب قوة جسده قتل أحد خصومه دون قصد، فدخل السجن وقضى سنوات بين القتلة ومجرمى النفس، واضطر أن يعيش حياتهم ويتعامل بلغتهم ويصادقهم رغماً عنه، ففى هذا العالم إذا لم يستطع الرجل أن يدافع عن نفسه ويحمى شرفه وماله يؤكل ويتحول إلى خادم ومطية، ولا توجد منطقة وسطى إما أن يكون نداً لهم فيصادقوه أو يلمسوا فيه ضعفاً فيستحلوا كرامته ويعاملوه معاملة النعاج، بعد هذه السنوات يخرج وقد انقطعت صلته بحياته السابقة وفقد عمله وانسدت سبل الحياة فى وجهه فيلجأ إلى أصدقاء السجن ويتخذ من مهنتهم عملا له، وهناك البلطجى الظهورات الذى

يلتقط رزقه من أى مكان، وقد تكون له حرفة ما يتكسب منها، شيال فى سوق أو بائع سريح أو تباع على سيارات النقل الثقيل وغيرها من الأعمال الدنيا، هؤلاء يتم استئجارهم لتنفيذ عمليات صغيرة كضرب أحد الأشخاص أو تهديده، أو عندما يكون أحد المعلمين بحاجة إلى عدد كبير من الرجال لغرض من الأغراض.

العمل الرئيسى للبلطجية هو استرداد الأموال الميتة والديون التى فقد أصحابها الأمل فى استردادها بالطرق المشروعة والأموال التى سلبت عن طريق النصب والاحتيال عبر عمليات مشبوهة وغير قانونية، ازدهر هذا العمل مع انتشار الفساد السياسى والإدارى، وتضخم حجم الأموال المنهوبة والمختلسة وغير الشرعية فى أيدى كبار موظفى الدولة، وفئات من رجال الأعمال المشبوهة والمشروعات الزائفة، عجلة جهنمية تدور فيها ملايين الجنيهات بطرق احتيالية لا تمت لعلوم الاقتصاد بصلة ولا تعتمد على أى قواعد أخلاقية، دار معها المغامر والأفاق ومن لا خبرة له بالتجارة والغشيم والطماع واللئيم وقليل الحيلة والخائب والنتن والكذاب، قوى يأكل الأضعف منه ويسرق من ماله ما يستطيع ويفر بغنيمته دون خشية قانون أو عقاب، فى ظل حكم رئيس أوجد حالة غياب القانون وتراجع دور الدولة فى عهده نتيجة لعجزه أو تواطئه أو عدم كفاءته أو فساده هو شخصياً، لم يجد الذين تعرضوا للنصب فى عملية تجارية، أو من سلب نصيبهم فى صفقة ما، أو من دخل فى شراكة تبين بعد ذلك أنها خدعة لسرقته، سوى اللجوء إلى البلطجية لاسترداد أموالهم المنهوبة.

يقيمون الحالة ويدرسون أشخاصها ويراقبونهم بطرق لا تختلف كثيراً عما

تفعله الأجهزة الأمنية ثم يشرعون فى العمل، يستخدمون وسائلهم فى محاصرة من أخذ المال ومعرفة نقاط ضعفه والنفاذ إليه منها وتهديده والضغط عليه حتى يرد ما استولى عليه، وفى المقابل يحصلون على نصف المبلغ لأنفسهم، ويجوز أن يسرقوه بعد أن ينتهوا من عملهم.

– العربية دى تلزمنا يا عم الحاج.

– يعنى إيه؟!

– يعنى توقع على عقد البيع ده.

– أنا لسه دافع لكم شنطة فلوس، نصف مليون جنيه.

– ده حق الراجل الذى نصبت عليه، العربية حقنا فى العملية وتلزمنا.. امضى هنا بالذوق أحسن لك.

وفى أحيان أخرى إذا وجدوا فى صاحب المال نقيصة لا تعجبهم، أو لم يرتاحوا له لأى سبب فإنهم يحصلون المال لحسابهم ولا يردون له شيئاً!

المعلم يوزع الشغل حسبما يرى، ولا يستطيع أحدنا أن يعترض أو يعدل عليه، عندما حدثت المظاهرات واحتل الناس ميدان التحرير ظهر عليه القلق والعصبية وبدا كأن هموم الدنيا سقطت على رأسه، لا تتوقف هواتفه المحمولة عن الرنين، ينظر إلى الشاشة وغالباً ما يلقى بالهاتف على المكتب وهو يسب ويلعن، أحياناً يعطى الهاتف لأحدنا ويطلب منه أن يعتذر للمتصل ويعرف منه ماذا يريد، فى أحيان قليلة يرد بنفسه، هاتف معين من هواتفه الأربعة يضعه دائماً فى جيبه ويوليه عناية خاصة، نادراً ما يضعه على المكتب بجوار الهواتف الثلاثة الأخرى، يبدو عليه التلهف وهو يسحب الهاتف من جيبه وينظر باهتمام إلى الشاشة ثم يرد.

– صباح السعادة يا باشا.. أوامر سعادتك... حاضر يا باشا.

فى ليلة هذا اليوم حدد لنا أحد الطرق الدائرية، هذا الطريق ملك لنا منذ الآن، كل السيارات التى تمر عليه فى أى وقت من اليوم تخصنا، ملاكى، أجرة، نقل، جهزوا سلاحكم وعسكروا هناك من بعد المغرب!!

***

أثر الهزيمة يبدو جلياً على الوجوه التى شاخت وهى تتابع فشل الهجوم وما تسبب فيه من فضيحة أصبحت مسار التندر على شاشات القنوات الفضائية ومواقع الإنترنت، الهروب إلى ضواحى المدن الأوربية حيث القصور والمزارع وحسابات البنوك السرية لم يعد ممكناً، الطائرات الخاصة واليخوت التى ادخروها لهذا اليوم أصبحت تحت سيطرة الجيش ولا توجد وسيلة للفرار بها، سقطت الحصانة وضاع النفوذ بأيدى الشعب الثائر فى ميادين وشوارع مصر.

لابد من مواصلة الحصار والضرب لإخلاء الميدان هذه الليلة بأى ثمن، إذا لم نقض على هذه الحركة اليوم فإن رقابنا ستطير لا محالة، البلد كانت تحت سيطرتنا الكاملة والشعب خاضع يأكل ويشرب ولا يتحرك، فماذا جرى؟! من أين جاء هؤلاء الشبان؟ لم نكن نراهم من قبل، لم يكن لهم وجود بالفعل، كانوا أبعد ما يكونون عن أمور السياسة والتدخل فيها، من أين جاءوا بهذا الوعى الذى يتكلمون به فى القنوات الإخبارية، إنهم يفهمون كل ما كنا نحرص على حجبه من تفاصيل سياسة البلد، كيف عرفوا؟ وكيف حصلوا على هذه المعلومات؟ لم نكن نظن أننا مفضوحون لهذه الدرجة، يبدو أنه لم يعد ممكناً إخفاء شىء فى هذا الزمن، أين أيام زمان الجميلة عندما كان القتيل يقتل ويدفن ولا يشعر به أحد ولا تنطتح فى أمره شاتان، ما كان يحدث فى الخفاء أضعاف المعلن عنه، صفقات،

اتفاقيات، شراء، بيع، مصالح متبادلة، أسرار تظل طى الكتمان لا يكشفها إبليس نفسه، أما الآن فالدنيا قل خيرها.. يخرب بيت الكومبيوتر والأقمار الصناعية وهذا الجيل الذى فشلت معه كل الحيل حتى القمع والترهيب والاعتقال، مجرد ولد يلعب على الإنترنت فى الإسكندرية وكان لابد من تأديبه، المخبرين هناك دمهم حامى ضربوه بضمير فمات فى أيديهم، غلطة صغيرة كانت تحدث زمان وتمر ولا يشعر بها أحد، قلبت علينا الدنيا وهيجت الشعب، وشكلها ستخرب بيوتنا بعد هذا العمر، وبعد كل ما فعلناه للبلد ولهذا الشعب الجاحد الناكر للجميل.

لابد من تصعيد الأمر والضرب فى المليان وليكن ما يكون، مازال قناصة الشرطة تحت أيدينا وينفذون أوامرنا، على عكس الجيش الذى انضم للناس وخرج عن طاعتنا، آه.. لو نفذوا الأوامر وضربوهم بالمدافع والدبابات فى الميدان كنا خلصنا.

- بلغوا الأوامر للقناصة تنزل الميدان وتشتغل مع آخر ضوء، يمكن الناس تخاف وتهرب.

- الوضع خطير يا فندم، هذا قد يصعد الموقف.

- نفذوا الأمر يا جبناء.

- لقد ضربناهم بالرصاص من قبل ولم يهربوا.

- نجرب مرة أخرى.

- حا.. حاضر يا فندم.

***

لم تهدأ المعركة فى الميدان طوال ساعات النهار، كاد البلطجية ينجحون فى النفاذ إلى منطقة القلب بسيوفهم وجنازيرهم بعد أن ألقوا عدداً هائلاً من زجاجات المولوتوف الحارقة التى كانت تسقط بين الثوار وتنفجر فيهم

لتحرق وتجرح بشظاياها المئات منهم، لم يستطع بعض ضباط الجيش الشبان البقاء على الحياد فنزلوا من دباباتهم وعرباتهم المدرعة وأطلقوا الرصاص فى الهواء فوق رؤوس البلطجية فأوقفوا زحفهم وأرغموهم على التراجع.

مع دخول المغرب وخفوت النهار بدأ شعاع الضوء الأخضر يظهر كخطوط حادة تتقاطع على الأرض وتتحول إلى بقع ضوئية عندما تقع على الأجساد، يعقبها مباشرة سقوط صاحب الجسد مضرجاً فى دمائه، حدثت حالة من البلبلة فى البداية مع سقوط عدة قتلى بشكل فجائى، وسرعان ما تبين وجود الرصاصات فى القلب أو الرقبة عند فحص الضحايا.

- هناك قناصة.. هناك قناصة.

صرخ عدد من الشبان بأعلى صوتهم محذرين الآخرين والذين على مقربة منهم، مع وجود آلاف الأفراد فى الميدان الواسع لم يكن هناك فرصة للكثيرين أن ينتبهوا للتحذير ويأخذوا حذرهم، خاصة مع احتدام المواجهة وتكثيف الهجوم من البلطجية، فظلت بقع الضوء الأخضر تدور فى الظلام تلتقط ضحاياها، تستقر لثوان على الجسد الشاب ليسقط بعدها قتيلاً، كان القنص محكماً، ويهدف إلى القتل مباشرة، رصاصة واحدة موجهة بدقة إلى مواضع الجسد المميتة، تطلق على الناشطين من الشبان الذين يثيرون حماسة الناس ويقفون فى المقدمة لمواجهة البلطجية، فترديهم فى الحال.

لكن وبرغم براعة القناصة وإخلاصهم فى تأدية عملهم لم ينجحوا فى تحقيق هدفهم بترويع الناس وإجبارهم على ترك الميدان، كانت الأعداد

تتزايد وأفراد الشعب تتوافد على الميدان للدفاع عن الثورة وتدعيمها رغماً عن البلطجية والقناصة وعن الحكومة والرئيس ورجاله وجهودهم اليائسة لإنقاذ أنفسهم.

رفع الشاب ابن العشرين يده ليقذف حجراً على البلطجية، لمع الشعاع الأخضر حوله، تقاطع على الأرض ثم استقر على صدره، توقفت يده فى الهواء ورجع خطوة إلى الخلف ومال جسده منحنياً على نفسه ليهوى على الأرض لافظاً أنفاسه، جرى عليه ثلاثة من أصدقائه ليحملوه، أمسكه الأول من قدميه والثانى من كتفيه وساعدهم الثالث بحمله من الوسط، رفعوه وهموا أن يجروا به، فتقاطع عليهم شعاع الضوء الأخضر ثانية فى الظلام، فى لحظة تهاوى الثانى والثالث وسقطا على الأرض وهما ينزفان، وأصيب الأول بلوثة هستيرية فأخذ يقفز على الأرض ودماء أصدقائه تقطر من ملابسه ويصرخ ساباً الرئيس ورجاله، وأراد أن يجرى فى اتجاه مصدر الشعاع وهو يحلف أن يقتل القناص ابن الـ.. والـ..، لكن الناس تجمعوا عليه وسحبوه رغماً عنه إلى أحد مراكز الإسعاف، بينما حمل آخرون جثث أصدقائه إلى المكان الذى تصف فيه أجساد الشهداء.

بعد انتصاف الليل بدأ البلطجية وأعوانهم يتراجعون منهزمين إثر فشلهم فى زعزعة الثوار، تركوا الميدان وهو أشد ازدحاماً مما كان، توقف القناصة أيضاً وبدا أنهم غادروا مواقعهم فى المبانى المحيطة بالميدان مجللين بعار لن يمحوه الزمن.

بخروج الثورة منتصرة بانتهاء يوم الأربعاء الدامى، فقد الرئيس تعاطف الجميع ولم يعد له مكان فى الدولة، وقد ثبت لهم تآمره وكذبه وخيانته

لوطنه وشعبه، توحد الشعب بجميع طبقاته وطوائفه على مطلب واحد وهو رحيله عن الحكم، دوت بها الهتافات وكتبت بخطوط عريضة على اللافتات، ارحل، لم يعد للشعب مطلب سواه، ارحل فلن تحكم مصر بعد اليوم.

بدأ الإعلان أن الجمعة القادمة هى جمعة الرحيل، استعد الناس لها فى جميع المدن، قامت مصر فى وجه الطاغية ولم يكن لها أن تقعد قبل أن تنهى واحداً من أشد عهودها ظلماً وفساداً، خرجت الملايين وهى أكثر تحدياً للرئيس ونظامه بعدما عانوه من البلطجية وعصابات النظام بسبب غياب الأمن المتعمد.

جاء أسبوع الصمود بعد جمعة الرحيل، وبعد أن كان تجمع مليون فرد فى ميدان التحرير يحدث بدعوة يحدد لها يوم معين من أيام الأسبوع يحتشد له الناس ليشكلوا جبهة رأى عام يضغطون بها على الرئيس ونظامه الحاكم أصبح خلال أسبوع الصمود واقعاً يومياً، ما يقرب من المليونى مواطن يجتمعون فى منطقة وسط البلد المحيطة بالميدان كل يوم، يطالبون الرئيس بالرحيل تحت سمع وبصر كاميرات وميكروفونات القنوات الإخبارية لجميع فضائيات العالم.

فى مساء اليوم التالى بينما الناس يتابعون الأخبار على شاشات العرض الكبيرة المنصوبة فى الميدان، سرت إشاعة بأن الرئيس استقال وترك الحكم، عمت الفرحة الجميع وسجد البعض على الأرض سجدة شكر وارتفعت صيحات الفرح والتهليل، لكن بعد عشر دقائق جاء ما ينفى الإشاعة ويؤكد عدم صحتها فخبت الفرحة فى الحال وتحولت إلى غم ألقى بعباءته الثقيلة فوق الجميع، بكى الكثيرون قهراً ووقع عدة أشخاص مغشياً عليهم، وسادت الميدان حالة من الحزن جعلت البعض

يأتى فى نهار اليوم التالى بفرقة زار لتقيم طقس إخراج العفاريت بالمزاهر والطبول والرقص فى وسط الميدان، عساها تنجح فى إخراج الرئيس من جسد الأمة.

خلال أيام أسبوع الصمود أضاف المصريون بصمتهم على الثورة، جمعوا بعبقرية بين الإصرار والمقاومة وبين الاحتفال الذى اتخذ طابعاً مصرياً خالصاً، إذاعات داخلية نقلت معداتها وسماعاتها وميكروفوناتها ونصبت على مسارح تذيع ما يستجد من أخبار أولاً بأول، معها أجهزة أسطوانات تذيع الأغانى الوطنية القديمة والحديثة التى يتفاعل معها الناس، فرق غنائية تأتى بآلاتها الموسيقية تغنى للثورة، شعراء يلقون أشعارهم الجديدة على الجماهير، رسامون يرسمون لوحاتهم فى الميدان ويقيمون معارض لها فى نفس المكان، المسلمون يؤدون الصلوات جماعة، والمسيحيون يقيمون قداس الأحد فى قلب الميدان وصلوا لله كى ينصر الثورة.

وسط تيار النضال الجارف بدأت الدعوات تخرج للتحرك إلى القصر الرئاسى ومحاصرته لتصعيد الثورة إلى مستوى المواجهة مع الرئيس مباشرة وإجباره على الاستجابة لمطلب الشعب بالرحيل ولو لزم الأمر اقتحام القصر واستخدام القوة.

تجرى محاولات لدفع عجلة الحياة اليومية حتى لا تدخل البلاد فى أزمات تؤدى إلى مزيد من الاشتعال، البنوك تفتح أبوابها وسط حالة من التخوف، التوقعات تتنبأ بحدوث كارثة ستصيب البنوك بالإفلاس نتيجة لاندفاع المواطنين لسحب أموالهم، لكن عبقرية الشعب ووعيه الجمعى تتجلى مرة أخرى فى عمل لم يخطر على بال أشد المتفائلين، انتهى اليوم الأول وحصيلة الإيداع أكبر من حجم السحب، اندفع الناس وتزاحموا على البنوك اندفاع الواثق المطمئن ليودعوا أموالهم لا ليسحبوها هلعاً وخوفاً

**ويخبئوها فى البيوت، حتى الذين ذهبوا للسحب أخذوا ما هم فى حاجة إليه فقط وتركوا باقى أرصدتهم.**

# 10

حد السيف أصبح على الرقبة، منذ البداية يعرف أنه ليس من رجال التاريخ ولا يهتم بهذا الموضوع رغماً عن المنشآت الكثيرة التى تحمل اسمه فى جميع أنحاء الجمهورية، أحياء وشوارع وميادين ومستشفيات ومدارس وأكاديميات، كبارى ومحطات لا تعنيه فى شىء، لا يستطيع التعامل مع الأمور المعنوية عموماً ولا يهتم بها بما فيها المشاعر والأحاسيس الإنسانية، طبيعته مادية لا تدرك إلا المحسوس والملموس وكل ماهو جسدى، حتى الغيبيات الدينية لا يلقى لها بالاً ولا يقيم وزناً لثواب أو عقاب، وهو ما يفسر فساده وخراب ذمته الذى انعكس على فترة حكمه وانتقل من مقره هابطاً إلى جميع مؤسسات الدولة.

الحياة على الأرض مليئة بالمتع لكنها لا تساوى شيئاً أمام متعة السلطة التى لا تضاهيها متعة أخرى، لا يستطيع إنسان أن يتركها بمحض إرادته.. لا يمكن! خاصة عندنا نحن أبناء العرب حيث السلطة كاملة مطلقة مقدسة، ذاتنا لا تمس، نحكم ونتحكم كما نشاء لا يقيدنا دستور ولا يخضعنا قانون، فكلاهما نستطيع تعديله وتبديله أو تغييره كلية حسبما يتراءى لنا، دائماً ما كنت أشفق على حكام الغرب الذين تتحكم شعوبهم فيهم وتحاسبهم على الصغيرة قبل الكبيرة مع إنهم لا يمكثون فى الحكم إلا لسنوات معدودة، الواحد منهم يقوم عن الكرسى قبل أن يدفئ مقعدته، أمر مضحك طبعاً، بسبب هذه الديمقراطية الخبيثة التى تنغص علينا الحياة، إنها أسوأ اختراعات الغرب وأسوأ نظام حكم عرفته البشرية، مازالوا لا يفهمون أنه لا يصلح عندنا، إنه نظام يلائم حياتهم هناك، أما

هنا فالأمر مختلف، شعوبنا لا تتحمل الحرية ولا تقدر على مسئوليتها، منذ سنوات وأنا أقول هذا الكلام فى الخطب والحوارات الصحفية لكنهم لا يفهمون، نحن بالفعل لدينا حكم ديمقراطى لكنه خاص بنا وبعاداتنا وتقاليدنا، سمحنا بحرية الكلام والنقد وسمحنا بدخول الفضائيات والإنترنت فماذا كانت النتيجة؟ هذه الهمجية والفوضى التى نحن فيها الآن، يطالبوننى بالرحيل وترك الحكم، لكنى سأبقى رغماً عنهم، لم يعد أمامى سوى الحل الأخير الذى أجلته للساعة الحاسمة.

الهدوء الظاهرى يسود طرقات القصر ومكاتبه، العاملون يتحركون فى صمت ويبدو عليهم الإرهاق، والوجوم يفرض نفسه على الأشخاص الذين يشكلون الدائرة الضيقة المحيطة بالرئيس، داخل المكاتب القريبة من المكتب الرئيسى الموظفون منكبون بشكل محموم على عملهم، تجرى حركة مراجعة شاملة لسجلات وأوراق ومراسلات داخلية وخارجية، ملفات أجهزة الكمبيوتر تفحص بعناية بالغة، المشاورات لا تتوقف بين مسئولى الحكومة الذين لا يتوقفون عن الحضور، يمكثون لبعض الوقت ثم ينصرفون مطأطئى الرأس.

الأمر الصادر منذ قليل يثير القلق، الترقب وانتظار رد الفعل يعصف بالأعصاب المشدودة، تنفيذ الأمر لا يعنى سوى حدوث مذبحة مخيفة فى الميدان، المرعب ليس فى سقوط آلاف الضحايا ولكن فى رد فعل الشعب، كل رجل منهم أصبح على يقين بأن الشعب الذى وصل إلى قمة الغضب لن يقف ساكناً يلملم قتلاه فى صمت كما كان يفعل فى الماضى بعد كل ضربة ينزلونها على رأسه، الموقف الآن اختلف جذرياً، لم يعد هو نفس الشعب الخانع.

تحسس كبير موظفى القصر رقبته وهو يتخيل الجماهير الغاضبة

المتعطشة للانتقام والثأر للضحايا وهى تقتحم عليهم بوابات القصر، سبوه وشتموه فى المظاهرات وطالبوا بمحاكمته كأحد رؤوس الفساد، أيام السعد ولت ويبدو أن الصعب قادم فى الطريق لا محالة، الاستمرار فى السلطة لن يتم إلا بثمن فادح، جميع الاحتمالات سيئة العواقب لا تبشر بخير، الرهان الأخير مفزع خاصة الآن مع حالة الغضب الشعبى العارمة.

الضرب بقوات الشرطة وبوسائل مكافحة الشغب يمكن تبريره، فهو من مهمات الشرطة فى نهاية الأمر، أما استخدام وحدات الجيش فى إخلاء الميدان بالقوة فأمر مختلف تماماً، الشرطة فى أقصى درجات العنف قد تسقط مئات الضحايا ما بين قتيل وجريح، لكن أسلحة الجيش مع ضبط النفس والاستخدام المحدود للقوة ستسقط عشرات الآلاف من القتلى!!

اللحظات تمر بطيئة مشحونة بالقلق، المناقشات لا تتوقف، اتصالات مستمرة مع القيادات والمسئولين، زعيق وشخط وكلام حاد تستخدم فيه ألفاظ بذيئة، عصبية غير مألوفة، حالات دوار تصل إلى حد الإغماء نتيجة لارتفاع ضغط الدم وكبر السن، الجيش يرفض تنفيذ الأمر بشكل قاطع، التقدير المبدئى للعملية يقدر الخسائر فى الأرواح بما لا يقل عن ثلاثين ألف قتيل، الضباط لا يقدرون على تحمل مسئولية المذبحة والدمار الذى سينتج عن اقتحام الميدان بالقوة.

هل انتهى الأمر؟ ضاع الحكم والسلطة والنفوذ؟! هل يمكن أن يحدث هذا؟ وبسبب الصغار الذين ولدوا جميعهم فى عهدى ولم يعرفوا حاكماً غيرى!!!

# 11

منذ عصر يوم الخميس والناس يقفون على أهبة الاستعداد لسماع الخطاب، أذاعت وكالات الأنباء أخباراً مؤكدة عن مصادر موثوق بها أن الرئيس سيعلن استقالته الليلة.

بدأت الجماهير تستعد للاحتفال، زحف الآلاف من المحافظات القريبة واتجهوا إلى ميدان التحرير رأساً ليستمعوا إلى الخطاب مع الملايين المحتشدة فيه على أمل أن يحتفلوا حتى الصباح بليلة العمر التى سيتحقق فيها حلم طالما راودهم على مدى سنوات طالت حتى زهقت أرواحهم، اللحظة التى سيترك فيها هذا الرجل الحكم ولا يعود بعدها رئيساً للبلاد، انتظروا بفارغ الصبر هذه اللحظة التى سيرفع فيها قبضته عن رقابهم ويرحل بعيداً، يكرهونه بقدر ما احتقرهم وتعامل معهم بازدراء، فى نهاية خطابة الأخير قال إن التاريخ سيحكم لنا أو علينا، غافلاً أن التاريخ قد أصدر حكمه بالفعل ودمغه كأسوأ حاكم لمصر فى القرنين الأخيرين على أقل تقدير، عاد بالبلاد إلى فترة نهاية عصر المماليك، زمن مراد بيك وابراهيم بيك الذى سادت فيه اللصوصية وشراء الذمم والظلم والجور وقطع الطريق ونهب أموال الناس ومصادرتهم حتى عم الخراب جميع الأقليم المصرى، كان لكل منهما جيش قوامه نحو ثلاثين ألف مملوك، عمله الأساسى جباية المال وتحصيل الضرائب من البلاد والقرى والأطيان وفرض الغرامات على التجار وأصحاب الحوانيت وأرباب الحرف، لينفقوها على أنفسهم وعلى من لا يستحق من أتباعهم وحواشيهم، ويتمتعوا بها فى قصورهم الفارهة وبساتينهم المطلة على

النيل بين حريمهم وجواريهم وغلمانهم.

على الرغم من أن الرئيس، بحكم الفارق الزمنى على الأقل، لا ينتمى إلى المماليك، لكنه تبنى بغير قصد منهجهم وسار على طريقهم وأبدع فى فنونهم حتى فاقهم وأتى بما لم يأتوا به على فجورهم وقلة دينهم وظلمهم واستبدادهم وضعف عقولهم وجهلهم وسوء تدبيرهم، سار فى طريق الحكم والفقر على يمينه والجهل على يساره، حتى سجل لتاريخ البلاد مراكز غير مسبوقة على المستوى العالمى حسب تقارير الهيئات العالمية، أعلى معدل وفيات أطفال فى العالم، المركز الأول فى حوادث الطرق، المركز الأخير فى كفاءة سوق العمل، أسوأ بلاد العالم فى التخطيط العمرانى، أكثر عواصم العالم ازدحاماً وتكدساً وأبطأها فى سرعة سير السيارات، أعلى معدل تلوث جوى وغذائى فى العالم، من أعلى الدول فى نسبة الإصابة بالسرطان والفشل الكلوى، مركز متقدم فى قائمة الدول غير الآمنة للاستثمار، مركز متقدم فى انتهاك حقوق الإنسان والتعذيب داخل مراكز الشرطة، مركز متقدم بين الدول الأكثر فساداً، خمسة وأربعون فى المائة من السكان تحت خط الفقر، نصف الأطفال مصابون بفقر الدم وأمراض سوء التغذية، اثنا عشر مليون مواطن بلا مأوى، كما حقق هو لنفسه مركزاً متقدماً فى قائمة الحكام الطغاة، وحافظ لسنوات على تصنيفه العالمى بين الخمسة الأوائل!

***

لم يعد فى الميدان ومنطقة وسط البلد موضع لقدم، الآلاف يقفون أمام الشاشات العملاقة التى تنقل إرسال المحطات الإخبارية، هتافات الإحماء بسقوط الرئيس تدوى وقد بلغ التحفز أقصى درجاته منذ بدء الثورة،

الملايين يستعدون لجنى حصاد ثورتهم على الرئيس ونظامه، يرتفع هتاف التهديد، بكرة العصر رايحين القصر، فى إشارة لا يخفى معناها، عدد كبير من الشخصيات العامة حضروا إلى الميدان ليعلنوا تأييدهم للثورة حاسمين موقفهم لصالح الشعب، لم يبق فى معسكر الرئيس إلا رجاله وشرذمة من الذين ربطوا مصيرهم بمصيره التعس ولم يعد بمقدورهم التراجع.

فى الثامنة إلا ربع مساءً أذيع بيان بأن الرئيس سيلقى خطابه بعد قليل، تأهب الناس واستعدوا أمام الشاشات، لكن اللحظات مرت ببطء وطال الانتظار حتى تجاوزت عقارب الساعة العاشرة، أخيراً بعد مرور دقائق كثيرة أعلن عن بدء إذاعة الخطاب، ساد صمت فورى شمل الميدان فى الحال، بعد لحظات ظهرت صورة الرئيس على الشاشة وارتفعت معها صيحات الاستهجان، هييه.. هيييه، ثم رجع الصمت عندما بدأ صوته يسمع بوضوح عبر السماعات المنتشرة فى جميع أرجاء الميدان، للمرة الأولى يبدو شاحب الوجه مهتزاً، يبذل جهداً للسيطرة على أعصابه التى نالت منها الأحداث المتلاحقة للثورة الشعبية عليه وعلى أسرته ونظام حكمه، تراجعت لهجة التعالى لكن بقاياها ظلت تلوح فى الخطاب الذى تم تسجيله قبل بضع ساعات، وظهر بما لا يدع مجالاً للشك أنه تعرض للمونتاج والقطع قبل إذاعته، ترى من يجرؤ على تعديل خطاب الرئيس وقطع كلامه؟ مع استمرار الخطاب وتكراره استخدام الأفعال بصيغة المستقبل إعلاناً عن النية فى البقاء، بدأ الناس يتململون فى وقفتهم، كانوا ينتظرون خطاباً موجزاً يعلن فيه استقالته أو تنحيه أو تنازله أو تخليه أو تركه لمنصب الرئيس، لكنه كعادته تجاهلهم ومضى يتحدث

بكلام مراوغ لا يشفى غليلاً ولا يقدم شيئاً، قبل أن ينتهى الخطاب ردت الجماهير تحية الرئيس بأحسن منها، بدأوا فى خلع أحذيتهم بصمت ورفعها عالياً فى الهواء باتجاه وجهه المطل من الشاشة، لكنهم ظلوا محافظين على هدوئهم ينظرون إلى الشاشة منصتين إلى الصوت الصادر من السماعات لعل الكلمة التى ينتظرونها تأتى فى النهاية، لعله يماطل فى آخر ظهور له كرئيس من أجل بضع لحظات إضافية فى عمر رئاسته، لكن لا، انتهى الخطاب وهو مازال رئيساً.

انفجر سخط الناس، فى نفس اللحظة اتفقوا جميعهم على كلمة واحدة، ارحل، ارحل.. ظلوا يرددونها بنغمة ثابتة وهم يخبطون الأرض بأقدامهم، ارتج الميدان تحت وقع الكتلة البشرية الهائلة التى أصبحت جسداً واحداً بلغت به شدة الغضب حداً مخيفاً، غضب لم يصل إلى هذا الحد منذ بدء الثورة، غضب زلزل الأرض وجعلها تهتز لعدة دقائق، وارحل تخرج من الاعماق مدوية لتنفجر فى الفضاء، ثم اندلعت ثورة الناس كبركان يقذف بالحمم، مئات الأحذية وزجاجات المياه الفارغة اندفعت فى الهواء لترتطم بالشاشات، شتائم، صراخ، وعيد، إحباط جعل الكثيرين يبكون وآخرون يصابون بالإغماء كمداً، لم يطق معظم الناس البقاء فأخذوا ينصرفون، وكثير منهم يحلفون بأغلظ الأيمان إنه لن يستمر فى الحكم رغماً عن إرادة الشعب مهما كانت العواقب، سنموت غداً عند أبواب القصر، لن يبقى فى الرئاسة إلا على جثثنا.

***

قصر مصر الجديدة الذى جعل منه الرئيس مكتبه الرسمى، كان فى

الأصل فندقاً يسمى هليوبوليس بالاس، يعد من ضمن منشآت الضاحية الراقية التى أقيمت فى مطلع القرن العشرين فى صحراء الريدانية التى كانت تمتد شرقاً فى المساحة الفاصلة بين القاهرة القديمة وريف عين شمس والمطرية بحقوله وأراضيه الزراعية الخصبة، بنى الفندق على مساحة أربعة آلاف متر مربع فى أطراف الضاحية وبالقرب من نادى الضاحية الذى يحمل نفس الاسم، تعرض الفندق للإهمال بعد ثورة يوليو وفقد رونقه بعد أيام العز التى شهدها كأحد أفخم فنادق القاهرة، اشتهر بالحديقة الواسعة التى تتوسطه، والممر العريض المسقوف بطراز البواكى الذى يدور حولها ويتخذ منه النزلاء مجلساً لطيفاً لتناول المشروبات، وكذلك قاعة مطعمه الراقى التى تعلوها قبة بنيت على طراز العمارة الإسلامية.

سكن الرئيس منذ زواجه وهو مازال ضابطاً شاباً ضاحية مصر الجديدة وارتبط بهذه الضاحية على مدى سنوات، نشأ أولاده فيها وتعلموا فى مدارسها، وعندما دارات الأيام ووصلت به إلى قمة الدولة لم يغادرها وظل يسكن بها فى قصر صغير قريب من الفندق المهجور كان قد خصص له منذ تعيينه فى منصب نائب الرئيس، وعندما أراد أن ينشئ له مكتباً يليق بمنصب الرئيس استسهل كعادته الاستيلاء على الفندق القريب وضمه إلى أملاك الرئاسة وتحويله إلى قصر للحكم بدلاً من مشقة التفكير فى بناء جديد يكلف جهداً وأموالاً، برغم وجود قصرى عابدين والقبة الرسميين والمجهزين كمسكن ومكتب لحاكم البلاد منذ زمن الخديوى إسماعيل الذى حرص أن يجعلهما من أملاك الدولة المصرية حتى لا يفكر أحد من الحكام بعده فى الاستيلاء عليهما وضمهما إلى أملاكه

الشخصية، أنشأهما فى إطار تحديثة للدولة على غرار قصور الحكم العريقة فى العواصم الأوربية، بالإضافة إلى تجديده لقصر رأس التين القديم فى الإسكندرية وجعله المقر الصيفى الرسمى لحاكم مصر.

كان الرئيس قد غادر القصر الفندق الذى لم يعد يقيم فيه إلا أياماً فى السنة إلى مقره السرى البعيد فى شرم الشيخ بعد تسجيله لخطابه الأخير وقبل إذاعته على الناس فى التليفزيون، وبرغم أن خبر مغادرته للقصر كان معلوماً للجميع لكن جماهير الشعب زحفت بعد صلاة الجمعة لتحاصره كرمز للحكم.

أحاطت قوات الجيش القصر منذ الصباح الباكر بالدبابات واتخذت استعدادات مشددة لحماية المقر الرسمى لرئيس الجمهورية، وجعلت فوهات المدافع مشرعة نحو الشارع باتجاه الجماهير الذين أخذت أعدادهم تتزايد مع تقدم الوقت، لم يحاول أحد اقتحام المتاريس التى أقامها الجيش حول القصر، ليس الآن.. لم يحن الأوان بعد، ولا الاشتباك مع الضباط والجنود، الأمر مختلف تماماً عن متاريس وكردونات الشرطة، مازال الناس يشعرون بالامتنان لقوات الجيش ولم تتعكر صفو علاقتهم بالشعب، غفل الرئيس ونظامه عنها ولم يستخدم أساليبه الشيطانية للوقيعة بينهما كما فعل بامتياز مع جهاز الشرطة الذى فصله عن الشعب بجدار من الكراهية والعداء.

عندما حان أذان العصر كانت الجماهير قد سدت الشوارع المؤدية للقصر من جميع الجهات، ولم يعد هناك موضع لقدم فى المنطقة الواسعة المحيطة به، وبدا جلياً أن مركز الثورة قد تحرك من ميدان التحرير وانتقل إلى ميدان روكسى بضاحية مصر الجديدة.

بينما الناس فى وقفتهم شقت أسرة صغيرة من أب وأم وطفل فى نحو

الثانية عشرة جموعهم وتقدمت إلى الصفوف الأولى، كان الجميع يفسحون لهم الطريق بمجرد سماعهم للأم التى تحمل فى يديها كفناً وتمسك بكف ابنها الصغير وترفعها وهى تتكلم بصوت واضح قوى النبرات ثابت الجأش.

– لقد مات ابنى الكبير شهيداً فى ميدان التحرير، وأنا على استعداد أن أقدم ابنى الآخر فداءً لمصر حتى تتحرر من هذا الرجل الظالم الذى جعل حياتنا جحيماً وعرفنا الفقر والجوع على يديه، ربنا ينتقم منه ومن أتباعه ومن كل ظالم سرقنا ونهب البلد...

اغرورقت عيون معظم الرجال بالدموع وهم يسمعون صوت الأم، فبرغم الصلابة التى تتحدث بها فى خطبتها الطويلة وهى تشق طريقها بينهم، كان حزناً دفيناً يقطر من كلماتها ويبث لوعته فى قلوبهم، اقتربت مجموعة كبيرة من الفتيات وأحطن بالأم يواسينها وهن يبكين، بينما ظلت هى صامدة لم تنزل من عينيها دمعة واحدة.

***

الثورة العاتية التى اجتاحت مصر وظلت تتصاعد خلال ثمانية عشر يوماً حتى أصبحت مثار اهتمام العالم وتصدرت عناوين الأخبار فى الصحف العالمية والقنوات الإخبارية الدولية لم يكن لأى قوة أن تقف فى طريقها، كان الشعب قد دفع ثمن الكرامة والحرية كاملاً وانتزع حقه فى الديمقراطية بالدم وأصبح الحصول عليها حتمياً وأمراً مفروضاً لا يقبل المساومة، لكن رجلاً واحداً مازال فى يده القرار برغم كل شىء، يقف وحيداً فى مواجهة شعب اجتمع على رفضه وقد فقد كل أسلحته التى حارب بها حتى اللحظة الأخيرة، سقط رجاله جميعاً مجللين بأكاليل العار وتلقفتهم مزبلة التاريخ، لم يعد هناك سوى كلمة واحدة لا غير ينتظرها

الشعب، كلمة واحدة لا يقبل غيرها ولم يعد هناك مجال للتفاوض بشأنها، كلمة تنهى عصراً بأكمله وتأتى بزمن جديد.

بعد غروب شمس الجمعة الثالثة بقليل، والحمرة الدامية مازالت تلون نهاية نهار شتوى جميل، قالها ومضى...

لتنفجر الفرحة ويعيش الشعب حتى الصباح أسعد لياليه منذ أجيال.

بانتهاء هذا اليوم كان المصريون قد صنعوا بنجاح وفى أقل بقليل من مائة عام ثلاث ثورات هزت العالم وأثرت تأثيراً بالغاً فى مجرى التاريخ.

مصر الجديدة

1 يونيو 2011

# صدر للكاتب

**1- الملك ينزل المدينة (مجموعة قصصية)، دار ميريت- 2006**

**2- خيانة الجسد (مجموعة قصصية)، طبعة خاصة، 2008**

**3- مصير بيكاسو (رواية)، الحضارة للنشر، 2009**

**4- مولانا (رواية)، الحضارة للنشر، 2010**

**5- سجن الطاووس, الحضارة للنشر، 2014**